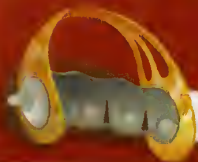


مرج الصُفَر

من مواقع الإسلام الحاسمة

بين المسلمين والمغول (٧٠٢ هـ)



وقائع المعركة

- أ- اليوم الأول: (السبت الثاني من رمضان سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م)
- ب- اليوم الثاني: (الأحد الثالث من رمضان سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م)
- ج- اليوم الثالث: (الاثنين الرابع من رمضان سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م)

نتيجة المعركة:

- أ- أثر النصر في مرج الصُفَر على أهل الشام.
- ب- أثر النصر في مرج الصُفَر على أهل مصر.
- ج- أثر النصر في مرج الصُفَر على الأدباء.
- د- أثر الهزيمة على التتار.

خاتمة البحث:

والله أسأل أن يلهمني الصواب، ويجنبني الزلل في القول والعمل، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ظروف وملابسات معركة مرج الصفر^(١):

كان لمعركة مرج الصفر ظروف وملابسات مهدت لقيامها أهمها:

(تهديد التتار^(٢) لأهل الشام وتخويفهم بالغزو، حتى دفعوا بهم - في شهر محرم سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م - إلى التفرق في سواحل الفرات وحصون الشام، وذهب معظمهم في أرض الشام من الفرات إلى غزة^(٣)، وبلغ الأمر بوالي دمشق (حسام الدين الحسن الرازي الحنفي) إلى تحذير الناس منهم، فأخذ يمر في الأسواق وينهاهم عن القعود، كما نادى المنادي في دمشق: «من قعد قدمه في رقبتة، ومن لم يقدر على السفر فليلجأ إلى قلعة دمشق»^(٤).

(١) ويسمى: مرج راهط، شقحب، غباغب، وهي: قرية في أول أعمال حوران من نواحي دمشق، بينهما ستة فراسخ. انظر التفصيل في: ياقوت (أبو عبد الله الحموي)، «معجم البلدان» (بيروت، ١٤٠٤هـ) ج (١٨٤/٤) (١٠١/٥)، ابن أبياس (محمد بن أحمد) «بدائع الزهور في وقائع الدهور» (تحقيق محمد مصطفى، ط ٢، القاهرة، ١٤٠٢هـ) (٤١٣/١/١)، ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) «العبر وديوان المبتدأ والخبر» (بيروت، ١٣٩٩هـ) (٤١٣/١/١)، ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) «العبر وديوان المبتدأ والخبر» (بيروت، ١٣٩٩هـ) (٤١٨/٥)، ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف) «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (القاهرة، ١٣٨٣هـ) (١٢٦/٨).

(٢) اسم شعب المغول، مواطنهم الأصلية الجنوب الغربي من بحيرة بيكال حتى كرلين، وهي المناطق الواقعة إلى الشمال الشرقي من الصحراء المغولية (صحراء كوبي).. (مادة تتر) دائرة المعارف الإسلامية (٤ ص ٥٧٦).

(٣) مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل، ابن عبدالحق (عبدالمؤمن البغدادي) «مراصد الاطلاع» على أسماء الأمكنة والبقاع (تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط ١ / ١٣٧٣هـ) (٢ / ٩٩٣).

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (٨ / ١٠٦-١٠٧).

(محاولة خديعة السلطان محمود غازان^(١) للمماليك بالشام، فقد بعث إليهم -سنة (١٣٠١هـ/ ١٣٠١م) كتاباً^(٢) يعرض فيه الصلح، فرفضوا ذلك، وكتبوا له^(٣): «أن الصلح لا يستقيم مع ما فعله التتار معهم بظاهر دمشق من قتل وسلب ونهب وارتكاب للمعاصي».

(مهاجمة غازان بجيشه تتار الشام -جمادى الأولى سنة (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) - ودخولهم حلب وحماة وأنطاكية، حيث قتلوا عدداً كبيراً من الرجال، وسبوا النساء والذرياري ونهبوا الأموال، ثم اضطروا إلى الانسحاب منها بعد أن نزلت عليهم الأمطار والثلوج واحدً وأربعون يوماً متتالية^(٤).

(وتكررت مهاجمة التتار للمماليك في الشام، ففي سنة (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) قدم السلطان غازان أمامه نائبه قطلوشاه^(٥) في عساكر بلغت ثمانين ألفاً، فأرسل هذا بدوره منها أربعة آلاف لمهاجمة المماليك في الشام فتصدى لهم (اسندمركرجي^(٦) -نائب

(١) ابن أرغون بن أبغا بن هلاكو.. تولى الملك سنة (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م) وحسن له نائبه نوروز الإسلام فأسلم بعد سنة من توليه الملك وأسلم معه كثير من التتار، غزا الشام سنة (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) فكانت وقعة الخزندار حيث ظفر فيها ودخل دمشق وخطب له على المنبر ثم دخلها مرة ثانية (٧٠٢هـ).

(٢) وما جاء في الكتاب: «...إن الله عز وجل جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة وشرّفنا بدين الإسلام .. وما بيننا ما يفرق كلمتنا .. فنرجع جميعاً في الصلح وإصلاح الرعايا، ونجتهد وإياكم على العدل في سائر القضايا .. (ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (١١١-١١٢).

(٣) وما جاء في الكتاب: «إن الذي جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية لا يخفى عليكم وليس هذا فعل المسلمين ولا من هو متمسك بالدين .. ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (١١٦/٨).

(٤) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (١٠٧/٨).

(٥) قطلوشاه التتري -الططري، أحد كبار المغوليين، ومقدم التتار يوم شقحب سنة (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) وجهز خربنداً بعد ذلك إلى أهل كيلان، وقتل بصحراء كيلان سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) التفاصيل في: ابن حجر، «الدرر الكامنة» (٣/ ٣٣٩)، ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» أبو الحامس يوسف، «الدليل الشافي على المنهل الصافي» تحقيق فهمي شلتوت، مكتبة كلية الشريعة بالأحساء (٥٤٧/٢).

(٦) اسندمر بن عبدالله الكرجي، الأمير سيف الدين، ولي البر بدمشق، ثم نيابة طرابلس، ثم حلب وكان بطلاً شجاعاً داهية جباراً، يحب العلماء، وكان مشكور السيرة، توفي في سجن الكرك في آخر الكهولة

طرابلس) في ألف وخمسمائة، فهزمهم في عُرْض^(١)، واستنقذوا منهم ستة آلاف كانوا قد أسروهم أثناء دخولهم بلاد القريتين^{(٢)(٣)}.

مما تقدم يتبين أن التتار خطّطوا لهذا اللقاء منذ وصولهم العراق، بهدف ضم الشام ثم مصر إلى أملاكهم، لتكون لهم السيطرة الفعلية على بقية العالم الإسلامي، فبدأوا بسياسة التهديد والتخويف لأهل الشام، وأعقبوها بالهجوم المباغت، الذي صحبه القتل والسلب والسبي، ودفعهم إلى التعجيل بغزو الممالك في مرج الصفر هزيمتهم في عُرْض، حيث اعتبروا ذلك أمراً جديداً في تاريخ غزواتهم، إذ كيف يمكن لهذه الجحافل التتارية أن تكتسح معظم بلاد الشرق ثم تعترضها قلة من المسلمين -ألف وخمسمائة- كما خشوا أن يرفع هذا النصر من معنويات الممالك، ويدفعهم إلى انتصارات لاحقة، فأرادوا التعجيل بالقضاء على فرحة النصر للمسلمين في أقرب فرصة ممكنة. وربما دفعهم إلى مهاجمة المسلمين في هذا المكان، خشيتهم أن تتاح الفرصة للممالك الاستعانة بأهل مصر، وهذا ما يتضح من قول فلول المنهزمين من التتار في عُرْض لقطلو شاه «بأن جيش مصر لم يأت بعد، وأن الذين قاتلوهم في عُرْض هم جند الشام، وطلبوا منه التعجيل بقتالهم قبل أن تصل العساكر المصرية»^(٤) وهذا يفيد أن التتار أرادوا اللقاء بالفئة القليلة، ليضمنوا النصر عليها.

سنة (٧١١هـ/ ١٣١١م) انظر ترجمته في ابن تغري بردي، «الدليل الشافي» (١/ ١٣٢)، ابن العماد (عبدالحق)، «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» طبعة بيروت (٦/ ٢٥).

(١) بلدة من أعمال حلب بين تدمر والرصافة ياقوت، «معجم البلدان» (٤/ ١٠٣) ابن عبدالحق، «مراصد الاطلاع» (٢/ ٩٣٠).

(٢) وتسمى حوارين أيضاً، وهي قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية، من تدمر على مرحلتين إلى جهة دمشق.. ياقوت، «معجم البلدان» (٢/ ٣١٦)، ابن عبدالحق، «مراصد الاطلاع» (٣/ ١٠٨٦).

(٣) ببيرس المنصوري «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» تحقيق الدكتور: زبيدة محمد عطا، القاهرة (٩/ ٣٥٦)، ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٤-١٢٥).

(٤) النويري أحمد عبد الوهاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» مخطوط بدار الكتب المصرية (٣٠ ورقة ٧)، ابن حبيب الحسن بن عمر «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه» (تحقيق محمد أمين، دار الكتب، ١٩٧٦م)، (١/ ٢٤١).

كما غضب قطلوشاه لمقتل أربعة آلاف من جنده في عُرْض؛ لأن فيهم الصفوة والشجعان، فترك ذلك في نفسه أثراً كبيراً، فأراد التعجيل بالانتقام لهم، وضاعف من غضبه إطلاق سراح أسرى القريتين - وعددهم ستة آلاف - حيث استنقذهم المسلمون من أيديهم.

ومن المؤكد أنه خشي أن يؤخر قتال أهل الشام، فيشور أهالي القتلى - الأربعة آلاف - عليه، ويتهموه بالتكاسل عن قتالهم، ويراسلوا على السلطان غازان، فيضطر إلى عزله إرضاءً لهم، فلا بد أن يظهر قطلوشاه بمظهر المحب لجنده والمدافع عن دمائهم، وهذا ما قطعه على نفسه أمام الجند حينما تم تعيينه نائباً للسلطان غازان عليهم.

وربما كان يأمل إعادة أسرى القريتين إلى الأسر مرة أخرى، فأراد التعجيل بغزو الشام قبل عودتهم - الأسرى - إلى ديارهم في القريتين، وكانوا - التتار - حريصين على استعادة أسراهم من التتار - وعددهم مائة وثمانين أسيراً^(١).

كما أغاض التتار رفض المماليك للصلح الذي عرضوه عليهم^(٢)، مما جعلهم يتخذون هذا الهجوم - بعد ذلك - حجة عليهم؛ لرفضهم طريق الصلح والمواودة.

ويستبعد أن يكون الدافع إلى تحرك التتار إلى بلاد الشام خيانة بعض الأمراء المسلمين من المماليك، ومكاتبهم للتتار. يقول البعض^(٣): «أن قفجق - نائب الشام - هو الذي حسن لغازان غزو الشام» وهذا قول مردود؛ إذ لو صح لصارت ضجة استنكار في بلاد الشام، وهل يمكن لمن يحسن لغازان غزو الشام أن يقا تل ضده،

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (١٢٥/٨).

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (دار النهضة، بيروت) (ص ٢٢٦)، عادل زيتون، تاريخ المماليك، دمشق (١٤١٥هـ) (ص ٥٥).

(٣) محمود رزق سليم، «عصر سلاطين المماليك» (مصر، ١٣٦٦هـ) (ص ٣٩-٤٠).

ويكون قائداً لعساكر حماة والعربان في جيش المماليك^(١)، لكن لا يستغرب أن تحدث الخيانة من أصحاب النفوس الضعيفة، فقد أشار ابن كثير^(٢) إلى كتاب من هذا النوع بعث به اثنان من أمراء المماليك إلا أنه وقع -بحمد الله تعالى- في يد نائب الشام، فعوقب صاحبه جزاءً على ما فعله.

وبناءً على ما تقدم يتضح أن رغبة التتار في غزو المسلمين في مرج الصفر كان ضمن مخططهم؛ للاستيلاء على بلاد الشرق الإسلامي، ولكن هزيمة عساكرهم في موقعة عرّض كان السبب المباشر الذي حرك نار الحقد في نفوسهم، وجعلهم يعجلون باللقاء في مرج الصفر، ولهذا لم يكن بين المعركتين -عرّض ومرج الصفر- سوى واحد وعشرين يوماً^(٣)، وهي الفترة التي عاد المنهزمون فيها إلى قتلوشاه ثم تحركوا مع عساكر التتار ناحية مرج الصفر.

تقدم التتار إلى الشام (مرج الصفر) :

في منتصف شهر رجب سنة (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) تحرك السلطان غازان مع عساكره -وكانوا ثمانين ألفاً^(٤) - صوب الشام بعد أن خلف في العراق جنوداً آخرين؛ للاستعانة بهم وقت الحاجة، وهذا ما يفهم من كتاب غازان الذي يصف فيه عساكره للمماليك ويقول: «أنهم كمطبات السحب...»^(٥).

وبعد أن وصل الرحبة^(٦) كتب إلى الأمير عز الدين أيبك^(٧) -نائب الشام- كتاباً

(١) ابن حبيب «تذكرة النبيه» (١/٢٤٦).

(٢) عماد الدين إسماعيل بن عمر «البداية والنهاية» (ط٥، بيروت، ١٤٠٩هـ) (١٤/٢٣).

(٣) كانت موقعة عرّض في حادي عشر من شعبان سنة (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)، بينما كانت مرج الصفر في ثاني رمضان -نفس السنة- (ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/١٢٥-١٢٧).

(٤) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/١٢٤).

(٥) المرجع نفسه، (٨/١١١).

(٦) قرية من قرى دمشق بينهما مسيرة يوم واحد (ياقوت، «معجم البلدان» (٣/٣٤).

(٧) الأمير عز الدين أيبك بن عبدالله الصالح، المعروف بالساقى والأقرم الكبير، كان له ثروة وأملاك، يقال

ادعى فيه أن بلادهم أجذبت، وأنهم يريدون الإقامة بحلب؛ ليرتادوا المراعي بنواحي الفرات ويسأله المصالحة^(١).

والحقيقة أن هذا ادعاء كاذب لا أساس له من الصحة، وحجة واهية أراد التتار التذرع بها للإغارة كما أشار بعض المؤرخين^(٢) والدليل على ذلك أن نزولهم الشام كان على حين غفلة من أهلها^(٣)، فقد نزلت فرقة حلب وأخرى مرعش^(٤)... وفضحوا أنفسهم حين بعثوا للمماليك يحذرونهم أن يستعينوا بعساكر السلطان الناصر محمد^(٥) في مصر أو يستجيشوه^(٦).

ورفض الأمير عز الدين أيبك هذا الصلح المزيف؛ لما يشوبه من مكر وخداع، فقد كان ماضيهم السيئ ماثلاً للعيان، فقد دخلوا مع النصارى والكرج^(٧)

أنه كان له ثمن الديار المصرية، وقد أنشأ بمصر جسر الأفرم ورباط الأفرم وهو بسفح الجرف، وكان من أحسن متزهات أهل مصر، وجعل فيه منبراً يخطب عليه للجمعة، توفي سنة (١٢٩٥/٥٦٩٥ م) المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «دار صادر - بيروت» (١٦٥/٢)، (٤٣٠)، ابن تغري بردي «الدليل الشافي» (١/١٦١).

(١) ابن خلدون، «العبر وديوان المبتدأ» (٥/٤١٧).

(٢) ابن إياس، «بدائع الزهور» (١/٤١٢).

(٣) المرجع نفسه.

(٤) مدينة بالشغور بين الشام وبلاد الروم، بينها وبين زبطرة تسعة فراسخ، (ابن عبدالحق، «مراسد الاطلاع» (٣/١٢٥٩) محمد عبدالمعتم الحميري «الروض المعطار في خبر الأقطار»، تحقيق الدكتور إحسان عباس (ط٢، بيروت، ١٩٨٤ م، ص ٥٤١).

(٥) أبو الفتوح محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالح، ولد سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥ م)، وتولى في شهر محرم سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣ م)، وهو أعظم ملوك مصر في عهده، أقام حرمة سلطنة مصر ومهد قواعدها وعظم قدرها.. توفي شهر ذي الحجة سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠ م) محمد بن شاكر الكتبي، «قوات الوفيات» تحقيق الدكتور إحسان عباس، (دار صادر، بيروت) (٤/٣٥)، ابن تغري بردي «الدليل الشافي» (٢/٦٧٤-٦٧٥).

(٦) بيبرس المنصوري، «زبدة الفكرة» (٩/٣٥٢)، ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ» (٥/٤١٨).

(٧) شعب من ولد قويل بن ناحور ابن آزر عليه السلام وكانوا على الدين النصراني، وكانت مواطنهم أرمينية.. انظر التفاصيل في ابن خلدون، «العبر وديوان المبتدأ» (٥/٤١٩).

والأرمن^(١) الشام - سنة (٧٠٠هـ / ١٣٠٠م) - وعاثوا في الأرض فساداً، وارتكب الطوامين - فئة من عساكر التتار - المعاصي والمنكرات، وبثوا الخوف والفزع في نفوس الأهالي الأمنين، حتى أن المؤذنين والخطباء لم يسلموا من الأسر، ولم يعتذر غازان عن خطأ الطوامين.

وبلغ المماليك عزم غازان على السير لقتال أهل الشام، وأن ما كان أرسله قبل ذلك - شهر محرم سنة (٧٠١هـ / ١٣٠١م) - من طلب المصالحة ما هو إلا مكر وخديعة؛ للإيقاع بالمماليك وبلاد الشام^(٢)، والمعروف أن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولو أنهم جنحوا للسلم حقيقة لاستجاب الأمير عز الدين أيبك لذلك، تطبيقاً لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، ولكن وضحت نيتهم في طلب هذا الصلح.

ولما اتضح للتتار أن المماليك اكتشفوا حقيقة نواياهم اتجهوا مسرعين إلى ديار القريتين^(٣) - في أربعة آلاف - وقتلوا الرجال وأسروا من فيها من النساء والأطفال - وكانوا ستة آلاف - وساقوهم أمامهم^(٤)، فأغاظ هذا التصرف أمراء المماليك^(٥) وفي مقدمهم اسندمر كرجي (نائب طرابلس)، فاعترضوهم في ألف وخمسمائة في عرُض - الحادي عشر من شعبان سنة (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) وافترقوا عليهم أربع فرق، وقتلوه قتلأ شديداً من نصف النهار إلى العصر وهزموهم بإذن الله تعالى، فقتلوا عدداً كبيراً منهم^(٦) ويظهر أن سياسة المماليك في

(١) من الشعوب الآرية، نزحوا من البلقان حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى آسيا الصغرى ثم تقدموا نحو كبادوكيا وعندما انحلت الامبراطورية الحيثية في القرن السابع قبل الميلاد فتحوا أورارطوا حيث استقروا وامتزجوا بالوطنيين، فسميت البلاد بعد ذلك أرمينية .. أرمينية على عمر العصور، لأصدقاء الثقافة الأرمينية (القاهرة، ١٩٤٤م ص ١).

(٢) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٥-١٨).

(٣) سبق التعريف بها.

(٤) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٤-١٢٥).

(٥) ومنهم: بهادر آص وكجكن وغرلو العادلي وتمر الساقى وأنص الجمدار ومحمد بن قراستقر.

(٦) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٤-١٢٥).

القتال حين قاتلوهم في أربع فرق كلما تعبت فرقة جاءت الأخرى لتواصل القتال هي التي عجلت بنصرهم، كما أن وجود العناصر المتعددة في الجيش التتاري كالكرج والأرمن .. كان من أسباب هزيمتهم؛ لأنهم كانوا يقاتلون بغير هوى منهم.

وما ان وصلت أنباء الهزيمة إلى غازان حتى تحرك - في الثالث عشر من شعبان سنة (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)، (أي بعد يومين من هزيمة التتار في عُرْض) بعساكره إلى داخل الشام؛ للانتقام من المماليك، فنزل قرون^(١) حماة، فاندفعت العساكر المصرية التي كانت فيها بين يديه إلى دمشق، حيث لجأ معظمهم إلى قلعتها، في حين بادر الناس إلى الجوامع، ولم يأت الليل إلا ومقدمة التتار في سائر نواحي دمشق^(٢).

الموقف في مصر والشام من قدوم التتار:

أ- موقف أهل مصر:

حين بلغ أهل مصر تحرك السلطان غازان إلى الشام، اجتمع السلطان الناصر محمد بأمرائه، واتفقوا على إرسال عشرة آلاف من عساكر مصر؛ لمشاركة إخوانهم في الدفاع عن الشام، وكان مقدمهم بيبرس الجاشنكير^(٣) وبعض الأمراء^(٤)، وفيهم ألف

(١) جمع قرن وهو الحصن، أي نزل الحصون، (محمد مرتضى الزبيدي، «تاج العروس من جواهر القاموس» دار الفكر، بيروت (٩/ ٣١٠).

(٢) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٥).

(٣) من ممالك المنصور قلاوون، ولي السلطنة سنة (٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) وقبض على الأمراء المواليين للسلطان الناصر محمد، ولما رأى بيبرس أن الأمراء ينحازون إلى جانب الناصر كاتبه بخضوعه له ونزوله عن الملك وعرض عليه أن يعيش في إحدى مدن الشام، لكنه فرّ مع بعض خواصه إلى صعيد مصر، لكنه قبض عليه وأتى به إلى القاهرة ومات بها سنة (٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) .. انظر التفاصيل عن ترجمته: ابن حجر، «الدرر الكامنة» (١/ ٥٠٢) وما بعدها، محمود سليم، «عصر سلاطين المماليك» (١/ ٤٠-٤١).

(٤) منهم طغريل الإيغاني، كراي المنصوري، حسام الدين لاجين الأستاذ دار ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٤).

مملوك، وأمرهم بالتحرك في الثامن عشر من شهر رجب (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) ووصلوا دمشق بعد شهر (أي منتصف شعبان)^(١).

وكان يبهرس عند خروجه يظن أن التتار بمجرد سماعهم بقدوم الجند من مصر سيفرون، وكان يقول لمن معه من الأمراء: «وما هم التتار؟ أنا ألقاهم وأبدد شملهم بهذا الصارم البتار»^(٢) فلما تحقق من عزم التتار على القتال خاف وأرسل إلى مصر يستحث السلطان الناصر محمد للخروج ببقية الجيش، فاستشار الناصر محمد كبار أمراءه ومقربيه، فاتفق رأيهم على الخروج إلى بلاد الشام؛ نصرة لأهلها وحماية لها لعلمهم أن تأمين بلاد الشام هو حماية لمصر من خطر التتار الذين كان في مخططهم السيطرة على مصر بعد الانتهاء من الشام، ولذلك نادى المناادي بالنفير العام، فحضر الجند من كل مكان؛ طلباً للشهادة في سبيل الله، واجتمع إليه طائفة من عربان الشرقية والغربية^(٣)، كما اجتمع معه ما لا يحصى من العساكر - قيل أنهم تسعون ألفاً^(٤) - وأخذوا في الاتجاه إلى بلاد الشام جماعات جماعات يتقدمهم السلطان الناصر محمد، وبدر الدين (أمير السلاح) وأبيك الخزندار، وتبعهم بعد ذلك الخليفة المستكفي بالله سليمان^(٥) ومعه القضاة الأربعة، واستتاب بمصر الأمير عز الدين أبيك البغدادي^(٦)

(١) ابن أبيك، «كنز الدرر» (٨٢/٩) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (١٢٤/٨).

(٢) ابن أبيك، «كنز الدرر» (٨٣/٩).

(٣) ابن إلياس، «بدائع الزهور» (٤١٣/١/١).

(٤) يبهرس المنصوري، «زبدة الفكرة» (٣٥٥/٩).

(٥) سليمان بن أحمد بن أبي علي الحسن .. العباسي، ولد سنة (٦٨٣هـ / ١٢٨٤م) وولي الخلافة عقب والده سنة (٧٠١هـ / ١٣٠١م) توجه مع الناصر إلى غزو التتار وشهد وقعة شقحب في رمضان (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) وهو راكب .. ثم تغير عليه السلطان الناصر بسبب المظفر يبهرس فاعتقله ببرج القلعة ثم أفرج عنه بعد خمسة أشهر، وكان جواداً فاضلاً .. وكانت مدة خلافته تسعاً وثلاثين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً، وتوفي سنة (٧٤٠هـ / ١٣٣٩م) ابن حجر، «الدرر الكامنة» (٣٣٦/٢) ابن حبيب «تذكرة النبي» (٢٤٠/١).

(٦) هو الأمير عز الدين أبيك البغدادي المنصوري، كان ممن تولوا الرحبة، ثم ولي الوزارة في العاشر من المحرم (٧٠١هـ / ١٣٠١م) لما توجه الأمير قراستغر لكشف القلاع (٧٠١هـ / ١٣٠١م) ثم صرف عنها بابن

حتى يرجع من الشام^(١).

واختلف المؤرخون في الوقت الذي خرج فيه السلطان الناصر محمد مع قواته إلى الشام، فقليل أنهم خرجوا بعد وصول قوات بيبرس الجاشنكير إلى الشام^(٢)، (أي منتصف شهر شعبان ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م).

وقيل: في الثالث من شعبان من السنة نفسها^(٣)، ولا شك أن القول الثاني أقرب إلى الواقع؛ لأن بيبرس مع عساكره استغرقوا شهراً كاملاً في طريقهم إلى الشام^(٤)، فلماذا كان السلطان الناصر مع عساكره تحركوا في منتصف شعبان، فلا بد أن يكون وصولهم الشام بعد شهر كامل (منتصف رمضان) وهذا غير وارد؛ لأنه ثبت وصول السلطان الناصر مع عساكره إلى الشام في يوم السبت الثاني من رمضان (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)^(٥)، بل قيل قبل ذلك؛ لما ذكر عن رجل (فخر الدين الرقي) أنه جاء ليشير الناس في قلعة دمشق بوصول السلطان الناصر يوم الخميس تاسع وعشرين شعبان (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)^(٦)، وقد شارك السلطان الناصر مع عساكره في مرج الصفر التي بدأت في الثاني من رمضان (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) ولا يمكن لعساكر السلطان الناصر أن تقطع الطريق في نصف شهر إلا في حالة مواصلتهم السير ليلاً نهاراً، وهذا لا يكون؛ لأنهم سيصلون وقد حلّ بهم التعب والإرهاق الشديد، مما لا يستطيعون معه الثبات على الخيل، والتصدي بقوة وشجاعة للتتار.

الشيخ وتوفي في شوال (٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) ابن حجر، «الدرر الكامنة» (١/ ٤٥١).

(١) المقرئ، «السلوك» (١/ ٣/ ٩٣١)، ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٥).

(٢) ابن إياس، «بدائع الزهور» (١/ ١/ ٤١٣).

(٣) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٥).

(٤) كان خروجهم ثامن عشر رجب (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) وكان وصولهم دمشق نصف شعبان

(٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٤).

(٥) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٦).

(٦) ابن كثير، «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٦).

وبناءً على ذلك يكون بيبرس الجاشنكير قد تحرك بعساكره في الثامن عشر من رجب وحين وصل مدينة قاقون^(١) - بعد عشرة أيام تقريباً - (الثامن والعشرين من رجب) تواترت الأخبار لديه بصحة وصول التتار إلى الشام، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد يحثه على الخروج، فتحرك في الثالث من شعبان (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) ووصل بداية رمضان، وهذا ما أكدّه ابن دقماق^(٢).

أما ما ذكر عن السلطان الناصر أنه قاد العساكر المصرية وعمره أربعة عشر عاماً^(٣)، فهذا غير مقبول لأنه تولى السلطنة في السادس عشر من المحرم سنة (٦٩٣هـ/ السابع عشر من ديسمبر سنة ١٢٩٣م) وله من العمر تسع سنوات^(٤) وبهذا يكون عمره - حين قاد الجيوش - ثمانية عشر عاماً، وهذا معقول، ثم أنه لا يمكن بأي حال أن يقود جحافل الجيوش - تسعين ألفاً - من كان سنه أربعة عشر عاماً، ولا أن يسمع الجند أوامره أو نواهيه.

ب- موقف أهل الشام:

وأما بالنسبة لأهل الشام فحين علموا بتقدم التتار إليهم خافوا واتجهوا صوب دمشق، ولم تكن أحسن حالاً من غيرها - حلب وحماة وحمص - إذ أن أهلها كانوا يتهيئون للخروج عنها، إلا أنهم اجتمعوا في مكان قريب من قلعة دمشق، وتشاوروا في أمر الخروج إلى لقاء التتار أو انتظار قدوم السلطان الناصر^(٥) محمد، وخافوا من

(١) قرب قيسارية من ساحل الشام ياقوت، «معجم البلدان» (٤/ ٢٩٩)، ابن عبدالحق، «مراسد الاطلاع» (١٠٥٩/٣).

(٢) «الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين» (تحقيق محمد كمال الدين علي، بيروت عالم الكتب) (١٣٣/١).

(٣) سعيد عاشور، «مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك» (ص ٢٢٦).

(٤) حمدي عبد المنعم حسين «تاريخ الأيوبيين والمماليك» الاسكندرية، (١٩٦٦م، ص ١٨٩).

(٥) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٥).

الانتظار، خشية أن يباغتهم التتار كما حدث من قبل -سنة (٧٠١هـ / ١٣٠١م) - لذا قرروا الرحيل إلى الكرك^(١) وما جاورها؛ حقناً للدماء وحفاظاً على الأعراض، خاصة وأنهم توقعوا أن يصب غازان جام غضبه عليهم؛ بسبب تهديد السلطان عز الدين أيلك المنصوري له في كتاب بعث به إليه يقول فيه: «... وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة فبلادكم لغارتنا مقام، ولجيوشنا قرار وكما تدين تدان»^(٢).

ورحل الناس إلى الكرك والحصون المنيعة، فركب البعض ومشى البعض الآخر، وعلا وارتفع سعر الدواب فاشترى الناس الحمار بستمئة درهم، والجمل بألف درهم؛ رغبة في التعجيل قبل هجوم التتار^(٣).

ونستبعد أن يترك بعض الناس النساء والأولاد؛ لينجوا بأنفسهم كما ذكر ابن تغري بردي^(٤)؛ لأنه كان من أسباب خروجهم حقن الدماء وصوصن الأعراض.

ولم يكن تخوف أهل الشام خارجاً عن المألوف؛ فالنفس البشرية تميل إلى المواجهة وتكره لقاء عدو كالتتار قد ألفوا طباعه وعلموا شدة مراسه في القتال، وأنه لا يتورع عن الخيانة والمباغطة، فقد حدث (يوم الأحد الخامس من شعبان سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) أن تفهقر العسكر الحلبي والحموي أمام عسكر التتار إلى حمص، ونزل العسكر التتاري حمص وبعلبك، وعاث في الأرض بالفساد، فأقلق ذلك الناس، وزادهم خوفاً تأخر وصول السلطان الناصر محمد إلى الشام، فأرجف الناس وقالوا: «لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بقاء التتار؛ لكثرتهم، والأولى أن يتأخروا

(١) قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين إبله والبحر الأحمر وبيت المقدس، وهي على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الرض، وهذا يعني أن الناس كانوا يلجأون إليها في المخاطر التي تحيط بهم. ياقوت، «معجم البلدان» (٤/ ٤٥٣)، ابن عبدالحق «مراصد الاطلاع» (١١٥٩/٣).

(٢) المرجع السابق (١١١/٨).

(٣) المرجع نفسه (١٢٥/٨).

(٤) المرجع نفسه.

عنهم مرحلة مرحلة^(١).

لكن ذلك كله لم يمنع الأمراء والقضاة والفقهاء في بلاد الشام من أن يجتمعوا، وأجالوا النظر في الخطر المحدق بهم، وتحالفوا على عدم الرحيل عن دمشق^(٢) مهما كلفهم الأمر؛ لأنهم بمثابة القدوة الذين يتطلع الجميع إليهم، ومن واجبهم أن يلزموا الصبر ويهدأوا من روع الناس ويطمأنوهم ليكونوا صفاً واحداً ضد التتار، وحقق هذا التشاور أول نجاح له حين اتجه الشيخ تقي الدين بن تيمية^(٣) إلى العسكر الواصل من حماة، فاجتمع بهم وأخبرهم بما تعاهدوا عليه من لقاء التتار وعدم مغادرة البلاد .. فأجابوهم إلى ذلك^(٤).

إلا أن هذا لم يقض على مخاوف الناس، بل عاد الفزع إليهم؛ بسبب تأخر أخبار العسكر المصري عنهم؛ مما جعل الشك يساورهم في صدق قدرة الجيش على القتال^(٥) وعللوا ذلك أنهم -العساكر- لم يجدوا من يحمسهم على قتال التتار؛ فالناس تركوا ديارهم وأموالهم ومزارعهم عرضة للسلب والنهب والتخريب من جانب أهل الشر والفساد^(٦).

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/٢٥).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام .. الحنبلي، أبو العباس تقي الدين بن تيمية، ولد في حران العاشر ربيع الأول سنة (٦٦١هـ/١٢٦٣م)، برع في العلم والتفسير وأفتى ودرس وهو دون العشرين، وربما تزيد تصانيفه على أربعة آلاف كراسة منها: السياسة الشرعية، الجمع بين النقل والعقل، منهاج السنة، القواعد النورانية الفقهية، طلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها فقصدتها، فسجن بها ثم نقل إلى الاسكندرية، ثم أطلق فسافر إلى دمشق واعتقل بها ومات معتقلاً بقلعة دمشق سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٨م) ابن شاعر «فوات الوفيات» (١/٧٤)، ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/١٤١)، ابن العماد الحنبلي، «شذرات الذهب» بيروت، دار الكتب العلمية (٣/٨٠)، خير الدين الزركلي، «الأعلام» بيروت دار العلم للملايين (ط٧-١٩٨٦م) (١/١٤٤).

(٤) ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/٢٥).

(٥) فقال بعض الناس: «أن العسكر ساروا إلى السلطان الناصر محمد ليهربوا من القتال» ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/٢٥).

(٦) ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/٢٦).

ومع هذا الخوف والقلق الكامن في النفوس إلا أن الثقة بالله تعالى كانت قوية، ولجأ الناس إلى الله بالطاعات والإكثار من الدعوات^(١)؛ لإيمانهم بقدرته، وأنه وحده الذي يفرج الكرب مهما كانت، كما حاولوا إظهار حسن الظن بالجيش المرابط في مرج الصفر، وقدرته على دفع الخطر عن بلادهم - بإذن الله تعالى -.

وتوجهوا جميعاً بالدعاء لهذا الجيش لينصره الله تعالى على التتار، وأخذوا يتلمسون أخباره ويفكرون في مصيره .. فكانوا يصعدون إلى المآذن ينظرون من كل جهة علّهم يجدون أثراً يدلّهم على أحوال الجند^(٢).

وطمأن الناس في هذا الوقت المتأزم وصول الأمير فخر الدين إياس المرقسي (أحد أمراء دمشق) مساء الخميس التاسع والعشرين من شعبان (سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) حيث نقل إليهم أخبار وصول السلطان الناصر إلى الشام، واجتماع العساكر المصرية والشامية في مرج الصفر، واطمأن هو أيضاً - في ذات الوقت - على أوضاع الناس، وأن البلد لم يطرقها أحد من التتار؛ لأن التتار أرادوا اللقاء بالعساكر المصرية أولاً، فإن غلبوهم كان أمر البلد سهلاً بعدها، وإن كان العكس شغلوا عنها بهزيمتهم ولا يكون لهم بها مقام، ولذلك قالوا: «إن غلبنا فإن البلد لنا وإن غلبنا فلا حاجة لنا به...»^(٣).

ودخل شهر رمضان ليلة الجمعة، واستبشر الناس به خيراً وصام الناس يوم الجمعة والخوف ملازماً لهم، وزاد قلقهم وصول الأمير سيف الدين غرلوا العادلي^(٤)، وإسراره لنائب القلعة بحديث لم يعلم به أحد، مما جعلهم يخوضون في الأراجيف مرة

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٥).

(٢) ابن كثير «البداية والنهاية» (٢٦/ ١٤).

(٣) المرجع نفسه.

(٤) نائب دمشق لكتيغا، كان مشكور السيرة شجاعاً عاقلاً، ولما خلع كتيغا استمر هو أميراً كبيراً بدمشق إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة (٧١٩هـ / ١٣١٩م) ابن حجر «الدرر الكامنة» (٣/ ٢١٨).

أخرى، وصعد الناس صباح السبت على المآذن كعادتهم، فرأوا سواداً أو غيرة من ناحية الكسوة^(١) (جهة العسكر) فغلب على الظنون أن الوقعة هذا اليوم، فبادروا بالدعاء في المساجد والبلد، وطلع النساء والصغار على الأسطح، وكشفوا رؤوسهم، فنزل بهم مطر عظيم فهدأت نفوس الناس جميعاً^(٢).

هكذا كان موقف أهل مصر والشام من تقدم التتار إلى بلاد الشام، فقد لبّت العساكر المصرية النداء ووقفوا إلى جانب إخوانهم الشاميين - وهذا واجب حتمي - يدفعهم إلى ذلك الأخوة في الدين الإسلامي - يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ [الحجرات: ١٠]، - وحماية الأنفس من القتل، والدفاع عن أراضي المسلمين في كل مكان وحماية مصر من خطر التتار، ووقف الجميع مشاركاً لهذه العساكر المصرية، فتساوى في ذلك السيد والمسود والخليفة والأمير والغني والفقير، وكان وصولهم الشام مطمئناً لإخوانهم هناك ومقوياً لعزائهم، حيث اكتملت صفوف المسلمين في أرض الشام (في مرج الصفر) معلنين التحدي الصريح للتتار الذين استهانوا بأمرهم وعاثوا الفساد في أرضهم، وغدروا بهم في سبيل الوصول إلى مأربهم.

وشارك أهل الشام من دمشق وحمص وحماة .. العساكر المصرية والشامية شعورهم وأحاسيسهم، وتوجهوا بالدعاء لهم في كل حين، وإذا كان الخوف تملكهم وسيطر عليهم، فذلك لعدم وجود السلاح في أيديهم، ولخوفهم من مباغته التتار بحافله لهم، إلا أن الإيمان بالله تعالى كان راسخاً في القلوب، مما جعلهم يتذرعون بالصبر وتحمل المتاعب النفسية، وكانوا يهونون على أنفسهم بالصعود إلى أعالي المآذن للتأكد من خلو الطرقات من التتار، لكن وصول بقية العساكر المصرية يتقدمهم السلطان الناصر

(١) قرية أول نزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق، يمر بها نهر الأعوج، بينها وبين دمشق اثنا عشر ميلاً، سميت بذلك لأن غسان قتل بها رسل ملك الروم لما أتوا إليهم لأخذ الجزية منهم واقتسمت كسوتهم (ياقوت «معجم البلدان» (٤/ ٤٦١).

(٢) ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٦).

محمّد والخليفة المستكفي بالله واجتماعهم مع إخوانهم جعلهم يطمأنون وتتجدد عزائمهم.

مرحلة الإعداد لمرج الصفر:

أ- استعداد الممالك:

توافدت جموع العساكر المصرية والشامية في مرج الصفر انتظاراً للتتار الذين اتجهوا ناحيتهم تحدياً لهم، يحذوهم الأمل في التعجيل بالانتصار على المسلمين بالسيطرة على بلادهم، وردّ اعتبارهم بعد هزيمتهم الأخيرة في عرض (١١ شعبان سنة ٥٧٠٢هـ / ١٣٠٢م).

وضمت عساكر المسلمين البالغ عددها مائتي ألف مقاتل عناصر من الممالك السلطانية وممالك الأمراء - وهم عماد الجيش وركيزته الأساسية - وبعض العربان من مصر (من الشرقية والغربية) وعدد من العامة^(١) ممن لديهم خبرة ودراية بفنون القتال من أهل مصر والشام.

وبينت بعض المراجع^(٢) سياسة المسلمين في توزيع عساكرهم في ميدان المعركة وقالت: «قسم المسلمون عساكرهم إلى قلب وميمنة وميسرة، وكان في القلب: الخليفة المستكفي بالله (أمير المؤمنين)، السلطان الناصر محمد، الأمير سيف الدين سلاّر^(٣)،

(١) ابن إياس، «بدائع الزهور» (١/١٤١٣).

(٢) بيبس المنصوري، «التحفة المملوكية في الدولة التركية» (ط ١٤٠٧هـ) (١٦٥-١٦٦) «زبدة الفكرة» (٣٥٧/٩).

(٣) سلاّر بن عبدالله المنصوري، نائب السلطنة بالديار المصرية، رشح للسلطنة لما توجه الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك فلم يقبل، وسلطنه بيبس الجاشنكير، وعمل نائبه إلى أن قبض عليه الملك الناصر محمد بعد مدة طويلة ومات بالسجن سنة (٥٧١٠هـ / ١٣١٠م) ابن تغري بردي «الدليل الشافي» (١/٣١٤-٣١٥) ابن شاکر، «فوات الوفيات» (٢/٨٦-٨٧).

الأمير ركن الدين أستاذ الدار، الأمير عز الدين أليك الخازندار، الأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندادار، الأمير جمال الدين أقوس الأفرم (نائب الممالك الشامية) وبجانبهم ثلاثين ألفاً من عساكر الشام، وشارك في الميمنة: الأمير حسام الدين لاجين الرومي^(١)، الأمير جمال الدين أقوش الموصلية^(٢)، الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري، الأمير مبارز الدين بن قرمان، الأمير سيف الدين قبجاق^(٣) نائب حماة ومعه جماعة كبيرة من العسكر الحموي وعربان الشرقية والغربية -حوالي خمسين ألفاً- أما الميسرة ففيها: الأمير بدر الدين بكتاس الفخر (أمير سلاح)^(٤) الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري (نائب السلطنة بحلب)^(٥)، الأمير سيف الدين بتخاص المنصوري (نائب السلطنة بصفد)^(٦) الأمير سيف الدين طغريل الأتقاني^(٧)، الأمير

(١) أحد الأمراء الكبار بالقاهرة، شهد وقعة شقحب في رمضان (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) مع الممالك واستشهد بها .. ابن حجر «الدرر الكامنة» (٣/ ٢٧٠).

(٢) أقوش بن عبدالله المنصوري، من أكابر أمراء مصر .. توفي في شهر رجب سنة (٧١٠هـ / ١٣١٠م) .. ابن تغري بردي «الدليل الشافي» (١/ ١٤٦-١٤٧).

(٣) تولى نيابة الشام (٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) ثم عمل في خدمة غازان وكان إلى صفه في وقعة الخزنندار (٦٩٩هـ / ١٢٩٩م)، وكان له بلاء عظيم في وقعة شقحب (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) حيث سبق التتار إلى الماء وحال بينهم وبينه وكان ذلك من أعظم أسباب النصر، توفي سنة (٧١٠هـ / ١٣١٠م) ابن حجر «الدرر الكامنة» (٣/ ٣٢٥) وما بعدها.

(٤) منسوب إلى الأمير فخر الدين بن الشيخ وكان من أكابر الأمراء المنصورية، فتح مع الأمراء مرعش وتل حدون .. ولما عاد السلطان الناصر إلى السلطنة سنة (٦٩٨هـ / ١٢٩٨م) أقام بعد ذلك دهرأ في إمارته ثم لازم داره حتى مات فيها (٧٠٦هـ / ١٣٠٦م) ابن حجر «الدرر الكامنة» (١/ ٤٨١).

(٥) قراسنقر بن عبدالله المنصوري، أحد مقدمي الألف بمصر، ثم نائب حماة، ثم حلب عشر سنين، ثم عزل (٦٩١هـ / ١٢٩١م) وصار نائب السلطنة بمصر، ثم ولي نيابة حلب ثانياً واستمر بها عشر سنين، ثم نقل إلى نيابة دمشق، شارك الممالك في موقعة شقحب (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) ومات سنة (٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) ابن تغري بردي «الدليل الشافي» (٢/ ٥٣٩).

(٦) كان من الرحبة، ثم كان من أمراء دمشق ثم ولي نيابة صفد (٦٧٩هـ / ١٢٨٠م) ثم عاد إلى القاهرة وولي بها إمرة في أول سلطنة المظفر بيبرس .. كان شديد التجبر والتكبر .. مات بالكرك سنة (٧١١هـ / ١٣١١م) ابن حجر «الدرر الكامنة» (٢/ ٥).

سيف الدين بكتمر السلحدار^(١)، والأمير بيبرس الداودار^(٢) ومعهم جماعة كبيرة أخرى من الأمراء وعامة الناس من حلب ربما وصلوا ستين ألفاً.

ويظهر من هذا أن المسلمين أعدّوا عدتهم بطريقة صحيحة، كما أنهم اهتموا بالقلب اهتماماً كبيراً، لأن فيه مركز القيادة، ولعلمهم أن الخصم يركّز ضربات عليه أكثر من غيره، وإذا استطاع التتار اختراقه انتهى أمر العسكر وكانت الهزيمة، وإذا بقي القلب ثابتاً قويت الروح المعنوية، وزاد الصمود والمواجهة، كما اهتموا أيضاً بأمر الميمنة والميسرة؛ لما لهما من دور حيوي في الدفاع عن القلب وحمايته وحماية جناحي الجيش، كما احتفظ المسلمون بستين ألفاً كاحتياطي وجعلوهم على أهبة الاستعداد؛ لمساعدة أي فرقة تتعرض للخطر وقت المعركة.

وبادر العسكر إلى لبس السلاح من دروع^(٣) الحديد والخوذات^(٤)، وركبوا خيولهم العربية الأصيلة، واستعدوا للقاء التتار، وكانت صفوفهم تعجّ بذكر الله وقراءة القرآن، والتواصي على الثبات والصبر عند اللقاء^(٥).

(٧) طغريل الأتقان كان من ممالك اتقان الملقب سم الموت، ثم صار للمنصور قلاوون، فتنقل إلى أن ولي نيابة طرابلس، ثم تأمر بمصر حتى مات في شهر رمضان سنة (٧٠٧هـ/١٣٠٧م) ابن حجر «الدرر الكامنة» (٢٢٣/٢).

(١) بكتمر السلاح دار الظاهري المنصوري، أحد الأمراء الكبار بالقاهرة، كان فارساً شجاعاً كريماً حسن الشكل .. مات في عاشر شعبان سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) ابن حجر، «الدرر الكامنة» (١٦/٢). ابن تغري بردي، «الدليل الشافي» (١٩٥/١).

(٢) بيبرس المنصوري الخطائي الداودار، كان من ممالك المنصور، تولى نيابة الكرك ... كان عاقلاً وافر الهيبة كبير المنزل، ويلازم الصلاة في الجماعة وغالب نهاره في سماع الحديث والبحث في العلوم ولبه في القرآن .. مات في رمضان سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٤م) ابن حجر «الدرر الكامنة» (٤٣/٢).

(٣) جمع درع وهو لبوس الحديد؛ لحماية الصدر من الطعان ابن منظور «لسان العرب» (٨/٨١).

(٤) جمع خوذة وهو ما يوضع على الرأس من الحديد لحمايته من ضرب السيوف، وتسمى المغفر. الزبيدي «تاج العروس» (٥٦١/٢).

(٥) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (١٢٦/٨).

وكان في معية السلطان الناصر فرقة تضرب الطبول وتنفخ الكوسات^(١) والبوقات^(٢)؛ بهدف إزعاج التتار وملاحقتهم بعد الهزيمة.

ولما أكمل المسلمون ترتيب صفوفهم، وأصبحت كأنها بنيان مرصوص، كانت كما قال أبو الطيب المتنبي:

وإذا رأيت إلى السهول رأيها تحت العجاج فوارساً وجنابا
وإذا نظرت إلى الجبال رأيها فوق السهول عواسلاً وقواضبا
فكأنما كسى النهار بها دجى ليل وأطلعت الرماح كواكبا
أسد فرايسها الأسود يقودهم أسد تصير له الأسود ثعالبا^(٣)

ومشى الناصر محمد والخليفة بين الصفوف ومعهم القراء يتلون آيات القرآن الكريم التي تحث على الجهاد وتشوق إلى الجنة ومنها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٤]، ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وكان الخليفة المستكفي بالله يقول للجنود: «يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن حريمكم، وعن دين نبيكم ﷺ»^(٤).

(١) جمع لكوس وهو الطبل الذي يضرب عليه الزبيدي «تاج العروس» (٤/٢٣٦).

(٢) جمع لبوق وهو آلة تنفع فيها ويزمر لتحدث صوتاً قوياً الفيروز آبادي محمد بن يعقوب «القاموس المحيط» (ط١، ١٤٠٦ هـ، بيروت) (ص ١١٢٣).

(٣) بيبرس المنصوري، «التحفة المملوكية» (ص ١٦٥).

(٤) المقرئ تقي الدين أحمد بن علي «السلوك لمعرفة دول الملوك» (١٩٣٩ م، ١/٣/٩٣٣)، العيني، بدر الدين محمود بن أحمد «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» مخطوط (رقم ١٥٨٤ ج ١٩ ورقة ٢٨٤).

وتواصى بيبرس وسلار على الثبات، وعاد الناصر محمد والخليفة إلى مكانهما في القلب، ووقف الغلمان ومعهم الجمال خلف الجيش صفّاً واحداً، وقيل لهم: «من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه»^(١).

وقيل إن الناصر محمد أثناء ترتيب الجيش قال للأمراء: «أريد أن أحمل معكم فقالوا له: لا تحمل معنا ولكن أثبت مكانك، فإذا ثبت السلطان ثبتت العساكر»^(٢).

وكان لابن تيمية دور بارز في تشجيع الجند وحثهم على الجهاد، فقبل المعركة تعلّل البعض بعدم قتال التتار؛ لأنهم مسلمون مثلهم، فأفتاهم ابن تيمية بقتالهم قائلاً لهم: «هؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ويعيرون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة»، وكان يقول للجند أيضاً: «إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلونني، فتشجع الجند على قتال التتار وخلصت نياتهم»^(٣).

كما كان له دور كبير في رفع الروح المعنوية في شتى فرق الجيش، بالقرآن الذي كان يقرأه والأحاديث النبوية الشريفة التي كان يذكرها لهم، بل وبشرهم بالنصر قبل القتال، فقيل أنه حلف بالله للسلطان وللأمراء أنهم سينتصرون في هذه المعركة، فقالوا له: قل إن شاء الله فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً^(٤)، وأيضاً مما ذكر لابن تيمية في هذه المعركة أنه أفتى الناس بالفطر، حيث كانت المعركة في الثاني من رمضان (١٣٠٢ هـ / ١٣٠٢ م) وكان يدور على الجند ومعه شيء في يده يأكل منه فأكل الجند، وفي أثناء هذا كان يذكرهم بحديث رسول الله ﷺ أثناء فتح مكة^(٥): (إنكم ملاقوا

(١) المقرئزي «السلوك» (٩٣٣/٣/١) العيني، «عقد الجمان» (١٩ ورقة ٢٨٤).

(٢) العيني «عقد الجمان» (١٩ ورقة ٢٨٣-٢٨٤).

(٣) ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/٢٥).

(٤) ابن الوردي زين الدين عمر، «تمة المختصر في أخبار البشر» تحقيق أحمد رفعت البدرأوي، (ط ١)، بيروت ١٣٨٩ هـ (٢/٢٨٨)، العيني «عقد الجمان» (١٩ ورقة ٢٧٨)، ابن بهادر محمد بن محمد، «فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر» مخطوط رقم (٢٣٩٩) (٢/٢٠٣).

(٥) ابن بهادر، «فتوح النصر» (٢/٢٠٣).

عما سبق يتضح لنا الاستعداد الجيد للجيش، وقوة الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، مما دفعهم إلى ملازمة كتاب الله وقراءة آياته، وذكر أحاديث الرسول ﷺ وأيضاً إخلاصهم النية في القتال، وأنه لنصرة الإسلام وأهله، مما زاد ثقتهم بالله تعالى، وجعلهم يحسنون الظن به وينصره القريب - قبل بدء المعركة - ودفع ذلك ابن تيمية إلى الحلف بالله بأن المسلمين سينتصرون - بإذن الله - وأن عليهم التوكل على الله في جميع أمورهم مع الأخذ بالأسباب من إعداد القوة بشتى أنواعها والاستعداد النفسي.

ب- استعداد التتار:

وأما بالنسبة للتتار فقد انقسمت عساكرهم أربع فرق، يتبع كل فرقة جماعة من الكراديس^(٢)، على كل كردوس أحد القادة الشجعان، وقاد قطلوشاه (مقدم التتار ونائب قازان عليهم) الفرقة الأولى وضمت ثلاثين ألفاً، وقاد جوبان الفرقة الثانية وضمت ثلاثين ألفاً كذلك، وقاد الثالثة مولاي ومعه عشرون ألفاً، وقاد الأخيرة طيطق ومعه عشرون ألفاً، فيكون مجموع التتار مائة ألف^(٣)، ومن بين الأمراء الذين تولوا الكراديس، سوتاي، اقطاجي، قرشي بن الناق، طوغان، شبوشي بن قطلوشاه، طغريل بن أجاي، أبشقا، أولاجغان، والكان، وشارك التتار عناصر متعددة، كالكرج، الأرمن، الطوامين، وطوائف أخرى ممن يحب الفساد في الأرض^(٤).

(١) والحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ولحسن صيام فنزلنا منزلاً، فقال رسول الله ﷺ (إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم - فكانت رخصة، فمنا من صام ومنا من أفطر - ثم نزلنا منزلاً آخر، فقال: إنكم مصبحوا عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا، وكانت عزمة فأفطروا). مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري) «الجامع الصحيح» (ط ٣، بيروت، ١٣٨٩هـ) (٢٣٦/٧).

(٢) جمع كردوس وهو القطعة من الخيل العظيمة، ابن منظور، «لسان العرب» (٦/١٩٥).

(٣) بيارس المنصوري، «التحفة المملوكية» (ص ١٦٦)، بيارس الداودار «زبدة الفكرة» (٩/٣٥٩).

(٤) المرجع نفسه.

ويظهر من هذه التقسيمات الاستعداد الجيد من التتار، فقد هياؤا أنفسهم لاستقبال المسلمين المماليك بهذه الفرق الأربع والكراديس المتعددة إلا أنها مع ذلك كانت تتهيب لقاء المسلمين؛ ولذلك كانت تسير دفعة واحدة حتى أنها شبهت بقطع الليل لا يبين فيها الرجل من الخيل^(١).

كما أن تعدد العناصر في جيش التتار يعني وجود أهواء مختلفة ورغبات متعددة، فالطوامين وغيرهم ممن عرفوا بميلهم إلى الإفساد في الأرض، وربما دفعهم للخروج مع التتار رغبتهم في السلب والنهب وارتكاب المعاصي، في حين أرادت بقية العناصر كالكرج الانتقام من المسلمين، والسيطرة على الشام ثم مصر، وهذا يفيد اختلاف الأهواء والدوافع مما يزيد من تأزم حدة الموقف بالنسبة للمسلمين.

وإن تحرك العساكر التتارية ناحية المسلمين في مرج الصفر مباشرة يدل على استعجالهم للقاء بالجيش الشامي وحده، إذ لم يكونوا يعلمون بوصول الجيش المصري، ومما يؤكد هذا أننا سنعرف خلال المعركة أن قطلوشاه (مقدم التتار) سأل عز الدين أيدمر (نقيب المماليك السلطانية) حين وقع في الأسر. من أنت؟ فأجابه: من أمراء مصر، وأخبره بقدوم السلطان الناصر محمد وهذا ما ذكره ابن تغري بردي^(٢) بأن قطلوشاه لم يعلم بوصول السلطان وجيش مصر إلا ذلك الحين.

وقائع المعركة:

أ- اليوم الأول:

وفي عصر يوم السبت الثاني من رمضان (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)^(٣) هاجمت الفرقة التتارية الأولى - وعددها ثلاثين ألفاً - مع مقدمهم قطلوشاه ميمنة المسلمين التي تضم

(١) ييبرس المنصوري «زبدة الفكرة» (٩/ ٣٥٧).

(٢) النجوم الزاهرة (٨/ ١٢٨).

(٣) ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٧).

جماعة كبيرة من العساكر الحموية وعربان الشرقية والغربية، وقاتلوهم أشد قتال، والذي يظهر لنا أن التتار عجلوا مهاجمة المسلمين ظناً منهم أنهم سيلتقون بالعساكر الشامية - كما سبق - وأن اللقاء بهم لن يستغرق زمناً طويلاً، ثم تكون الغلبة لهم، ولا شك أن قتلوشاه باغت ميمنة المسلمين، يقول بيبرس المنصوري: «وحمل التتار على الميمنة فصدموها بمجموعهم»^(١)، وربما كان للطوامين -الذين شكلوا نسبة كبيرة في الفرقة الأولى دور في المبادرة إلى التعجيل بضرب الميمنة؛ رغبة منهم في السيطرة على سلاحها وعتادها، حيث ترتب على ذلك استشهاد جماعة من الأمراء منهم: الأمير حسام الدين استاذ الدار، الأمير شمس الدين سنقر الكافري، الأمير جمال الدين أقوش أشمس الحاجب^(٢)، كما استشهد ألف فارس من أجناد الأمراء^(٣).

وتركت أخبار التتار مع ميمنة المسلمين أثراً كبيراً في نفوس المسلمين، مما دفع فرقه إلى التحرك السريع لإنقاذهم -وفي مقدمهم الخليفة المستكفي بالله، والسلطان الناصر محمد- بعدما شاهدوا شدة الحرب وقوة الطعن والضرب، إذ لم يكن لهم أن يروا إخوانهم من أمراء وفرسان يقتلهم التتار في وضح النهار دون أن يفعلوا شيئاً لإنقاذهم، كما انضمت الميسرة أيضاً يتقدمها الأمير بدر الدين بكتاس الفخري (أمير سلاح) إلى إنقاذ الميمنة، والتي نجت بفضل الله تعالى ومساعدة القلب والميسرة من الهلاك المحقق^(٤).

هكذا تضافرت جهود المسلمين لتخليص إخوانهم، كما كان لبعض الأفراد دور كذلك في مضاعفة الحماس والحث على التضحية في هذا الوقت العصيب، فقد ذكر

(١) بيبرس المنصوري «زبدة الفكرة» (٣٥٨/٩).

(٢) والأمير عز الدين أيدير النقيب، حسام الدين علي بن باخل، والأمير مبارز الدين أوليا بن قرمان، الأمير عز الدين أيدير أشمس القشاش، عز الدين أيدير الرفا المنصوري، علاء الدين علي بن ددا التركماني
انظر: بيبرس المنصوري «زبدة الفكرة» (٣٥٨/٩).

(٣) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (١٢٧/٨).

(٤) بيبرس المنصوري، «التحفة الملوكية» (ص ١١٦).

عن سلاّر أنه صاح في الناس: «هلك والله أهل الإسلام» ثم نادى في يبّرس الجاشنكير والبرجية، ولما أتوه تقدم بهم صفوف التتار، وكان لذلك أثره في بقية الأمراء، فما أن رأوا بلاء سلاّر ويبّرس وإقدامهم على الموت حتى اشتد حماسهم وتضاعف قتالهم، وأبدى الأمير أسندمر وقطلوبك وقبجق تعاوناً مع سلاّر ويبّرس، حيث قاتلوا معهم قتالاً شديداً تمكنوا على أثره من تخليص الميمنة من أيدي التتار^(١).

وظن بعض التتار أن هزيمة ميمنة المسلمين هزيمة للجيش كله، فاتجهوا مباشرة - قبل نهاية اليوم الأول - إلى دمشق؛ بغرض السلب والنهب، يذكر ابن تغري بردي^(٢) أنهم بعد أن وصلوا دمشق أطلقوا إشاعة كاذبة بهزيمة جيش المماليك، فهاج الناس وماجوا وأقبلوا على الخزائن وفتحوها ونهبوا ما فيها وعزموا على الفرار.

أما قطلوشاه فقد لجأ مع بقية جيشه - الذي يقارب الثمانين ألفاً - إلى أقرب جبل منهم وهو جبل غباغب ومعهم عدة من المسلمين قد أسروهم، وهو يعتقد أنه انتصر على المماليك، وأن مولاي سار خلف المنهزمين من المسلمين^(٣).

وحين قرب المساء اتجه التتار بقيادة قطلوشاه إلى أقرب جبل منهم (جبل غباغب)^(٤) وفي ظنهم أنهم حققوا النصر على المسلمين، بل وطاردوهم بواسطة الأمير مولاي، ولذلك فضل قطلوشاه أن ينال مع جنده قسطاً من الراحة، إلا أنه حين صعد الجبل فوجئ بأعداد المماليك الكبيرة خلفه، فغلب على ظنه وصول العساكر المصرية وانضمامها إلى العساكر الشامية، وتأكد من ذلك بواسطة الأمير عز الدين أيدمر (نقيب المماليك السلطانية) - كما سبق - وبأصوات الآلات من أبواق

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٧).

(٢) النجوم الزاهرة (٨/ ١٢٧-١٢٨).

(٣) المصدر السابق.

(٤) جبل غباغب: يقع على قرية تحمل اسمه، جنوبي شقحب من أول عمل حوران من نواحي دمشق ابن عبدالحق، «مراصد الاطلاع» (٢/ ٩٨٢).

وكوسات وطبول التي كانت تضرب عليها العساكر المصرية، وكانت قد زلزلت الأرض وأرجفت القلوب^(١).

ولا شك أن هذه الأخبار المفاجئة أثرت في معنويات العساكر التتارية، مما جعلهم يفكرون في الهرب من الميدان للنجاة بأنفسهم، لكن فيما يبدو أن قتلوشاه جمعهم وهذا من روعهم، وبين لهم أن الممالك مهما بلغت أعدادهم وعددهم فهم يهابون التتار ويخافونهم، كما ذكّرهم بما ينتظرهم بعد الغلبة على الممالك من غنائم وخيرات بلاد الشام، ومصر بعدها، ومع هذا انقسم التتار في آرائهم إلى فريقين: فريق - وعددهم ثمانون ألفاً- أخذ بنصيحة قتلوشاه، ورأى ضرورة البقاء ومواصلة القتال؛ حيث لم يبق سوى زمن يسير على نهاية المعركة وتكون الغلبة للتتار -لا محالة- وثبت هذا القسم في مكانه وأخذ يرتب صفوفه على ذلك^(٢).

والآخر -وعلى رأسه الأمير مولاي ومعه عشرون ألفاً- يرون الرجوع من حيث أتوا، وأنه لا طاقة لهم بقاء الأعداد الكبيرة من المسلمين، ولا بد أنهم عاينوا أعداد الممالك وصمودهم في الدفاع عن بلادهم فهربوا مغرب ذلك اليوم الأول^(٣)، فلم يعترضه أحد من الممالك؛ لانشغالهم بترتيب صفوفهم، وانتهى أمرهم إلى نهر الفرات.

وترك هروب مولاي مع عساكره تساؤلات شتى في نفوس الممالك؛ مما جعلهم يفكرون في منع البقية -التتار- من الهروب، فأخذوا جميع الاحتياطات اللازمة لذلك، فأحاطوا جميع عساكرهم المصرية والشامية بجبل غباغب كإحاطة السوار بالمعصم، واستمر كل من بيبس وسلاز وقبجق يدورون على بقية الأمراء والأجناد يوصونهم بضرورة التيقظ والانتباه الجيد للتتار حتى لا يتركوا فرصة لهروب البقية من التتار^(٤).

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (١٢٨/٨).

(٢) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (١٢٨/٨).

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه.

ولا بد أنهم كانوا يتناوبون على النوم تلك الليلة، فتنام جماعة وتبقى أخرى تحرس الموقع. وظل الوضع على هذه الحال طوال ليلة الأحد حتى صلى المسلمون الفجر واستعدوا للقاء التتار.

وانتهى صباح اليوم الأول ومساؤه بعد أن أصيبت ميمنة المماليك بمحنة شديدة استشهد بسببها عدد كبير، ولم يكن ذلك لتقصير منهم أو عدم الرغبة في القتال، وإنما لمفاجأة التتار بحربهم دون الآخرين ولولا لطف الله تعالى بهم ثم إنقاذ القلب والميسرة لهم لقتل جميع أفراد الميمنة - وعددهم خمسون ألفاً - ولتزعزعت لها صفوف المماليك، وتغير مجرى التاريخ بدخول التتار دمشق ثم مصر، وأصبحت له بعد ذلك السيادة في المشرق والمغرب. وإذا كان التتار قد نجحوا في ترويع أهل دمشق بالإشاعة الكاذبة عن هزيمة العساكر الشامية والمصرية فهم فشلوا في القضاء على الروح المعنوية للمماليك، والدليل على ذلك أنهم ألجأوا التتار إلى جبل غباغب ثم حاصروهم فيه طيلة الليل، لئلا يهربوا من أيديهم.

ب- اليوم الثاني:

وفي صباح اليوم الثاني (الأحد الثالث من رمضان سنة ٧٠٢هـ) كانت قد ضعفت^(١) الروح المعنوية لدى التتار، فقد عاينوا كثرة المماليك عن كذب مع هروب مولاي في عشرين ألفاً، كما منع عنهم الماء - الذي هو عصب الحياة - بحصار المماليك لهم، فكان عليهم: إما أن يقيموا بشرّ مقام في أعلى جبل غباغب حتى يموتوا عطشاً، أو ينزلوا من الجبل ويقاتلوا المماليك على الماء.

وبدأ القتال في اليوم الثاني حينما نزلت فرقة مع جوبان في ثلاثين ألفاً، وتلاها أخرى مع قطلوشاه في ثلاثين ألفاً أيضاً وتأخرت ثالثة مع طيطق في عشرين ألفاً^(٢)؛

(١) بيبرس المنصوري، «زبدة الفكرة» (٩/٣٥٨).

(٢) بيبرس المنصوري، «زبدة الفكرة» (٩/٣٥٩).

كاحتياطي لمساعدة أي فرقة تحتاج المساعدة وقت المعركة.

فاصطدمت الفرقتان التاريتان بالمماليك، وكان بينهم قتال شديد استمر حتى منتصف النهار^(١)، وكان المماليك أشد على التار من اليوم الأول؛ لكثرة عددهم من جهة - فكانوا في مائة وثمان وتسعين ألفاً - على اعتبار أنه قتل ألفين في اليوم الأول - وقلة عدد التار؛ فقد أصبحوا في ستين ألفاً، بعد أن هرب مولاي في عشرين ألفاً وتأخر طيطق في أعلى الجبل مع عشرين ألفاً أخرى، وكذلك لتنظيم المماليك صفوفهم من جديد، واستخدمهم السهام والرماح في صدّ التار، كما كانوا يتناوبون على القتال أميراً بعد أمير.

وفي هذا اليوم الثاني كان لقلب الجيش أثره في هزيمة التار، حيث أبدى رجاله من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف، حتى قيل أن بعض الأفراد كان يقتل الثلاثة والأربعة من الخيل تحته^(٢)، مما اضطر قطلوشاه وعساكره إلى الصعود إلى جبل غباغب مرة ثانية لما رأى كثرة القتلى في أصحابه، فقد قتل حوالي ثمانين رجلاً^(٣)، وجرح العدد الكثير، وللاستعانة بمن بقي من التار مع طيطق، ولتنظيم الصفوف من جديد ولبث الحماس في النفوس.

وحاول قطلوشاه - على جبل غباغب - استطلاع رأي أصحابه، فوجدهم قد خارت قواهم؛ لقتل مجموعة كبيرة منهم، ومنعهم الماء - حيث هلك كثير من خيولهم عطشاً - فاتفق رأيهم على التسلل في السحر للفرار وطلباً للنجاة^(٤)، ولا بد أن هذه الأخبار وصلت المماليك عن طريق من هرب من أسر التار بعد اليوم الثاني. أما عن المماليك فقد عادوا للإحاطة بالجبل من كل جانب؛ لئلا يهرب التار منهم،

(١) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٩).

(٢) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٨-١٢٩).

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٩).

على أن يتركوا لهم فرجة من جهة الميسرة، حتى إذا نزلوا جميعاً طاردوهم من الخلف وقتلوهم^(١).

وبهذا يكون صباح هذا اليوم ومساؤه أفضل حالاً للمماليك من اليوم الذي قبله، فقد اطمأنت نفوسهم، بسبب غلبتهم للتتار، وهذا يعود إلى تضافر الجهود من قبل الجميع، والبلاء الحسن الذي قدمته جهة القلب، حتى أجبأوهم إلى الجبل مرة ثانية هرباً من القتل، فرجع المماليك إلى تنظيم صفوفهم من جديد استعداداً للقاء التتار في اليوم التالي، كما أكد الأمراء على بعضهم بضرورة التيقظ ومراقبة التتار، ولعلمهم كانوا هذه الليلة أكثر تيقظاً من غيرها؛ لأنهم علموا بأن التتار سيتسللون في السحر ليهربوا طلباً للنجاة.

ج- اليوم الثالث:

في صباح اليوم الثالث الاثنين الرابع من رمضان (٧٠٢هـ)^(٢) نفذ التتار خططهم ونزلوا من الجبل متسللين إلى الأودية^(٣)، وقيل إن المماليك فتحوا لهم فرجة من جهة الميسرة^(٤)، ولم يتعرضوا لهم؛ مكرراً منهم، حتى إذا اكتملت أعدادهم وضعوا السيف فيهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة^(٥)، وأخذوا في مطاردة الفارين منهم، وتبعهم ثلاث فئات:

الأولى:

الأمراء والعساكر من الجيش يتقدمهم الأمير سيف الدين سارار، والأمير عز الدين

(١) المرجع نفسه.

(٢) بيبرس المنصوري، «التحفة المملوكية» (ص ١٦٧).

(٣) ابن كثير «البداية والنهاية» (٢٨/١٤)، ابن إياس، «بدائع الزهور» (١/١٤١٤).

(٤) بيبرس المنصوري «زبدة الفكرة» (٩/٣٥٩).

(٥) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/١٢٩).

أيك الخزندار، وأخذوا في مطاردتهم حتى ألجأوهم إلى القريتين، وقاتلوهم بها، فقتلوا عدداً كبيراً وأسروا كذلك، إلا من استطاع الفرار وتمكن من الوصول إلى الفرات، ففرق فيه؛ لزيادته في هذا الوقت^(١).

الثانية:

عامة أهل دمشق وخاصة الغلمان، وهؤلاء طاردوا مجموعة أخرى، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنموا عدة غنائم^(٢).

الثالثة:

العربان من أهل البلاد، وأخذوا في الكيد للتار، وكانوا على فريقين، فريق يأتي مجموعة كبيرة من التار ويتظاهرون بأنهم سيهدونهم الطريق ويتركونهم في الصحراء حتى يموتوا جوعاً وعطشاً، والبعض الآخر أوصلهم قريباً من دمشق، فخرج عليهم أهلها فقتلوهم^(٣).

وهذا يفيد أن اليوم الثالث كان عملية مطاردة للبقية الباقية^(٤)؛ لأن التار تعبت خيولهم وضعفت نفوسهم وألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل، وكانت فرصة لأن يشارك الجميع في قتالهم، فطاردتهم العساكر الشامية والمصرية لتنتقم منهم، لما حدث

(١) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل «المختصر في أخبار البشر» بيروت، دار المعرفة (٤٩/٤) محمد كرد علي «خطط الشام» (ط٨)، بيروت، ١٣٨٩ (١٣٨/٢).

(٢) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/١٣٠).

(٣) اليافعي عبدالله بن أسعد «مرآة الجنان وعبرة البقطان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان» (ط١)، ١٣٣٩ هـ (ص٢٣٦)، المقرئ «السلوك» (١/٩٣٧) العيني «عقد الجمان» (١٩ ورقة ٢٨٧).

(٤) يقول بيبرس المنصوري نائب السلطنة في مصر - وكان ممن شارك في هذه الموقعة -: «فلما كان صبيحة الاثنين الرابع من شهر الصيام جهّز السلطان الناصر محمد خيل الطلب وراء العدو...» «التحفة المملوكية» (ص١٦٧).

منهم مع ميمنة الممالك وقتلهم للأمراء والأجناد، وقاتلهم أهل دمشق، نظراً لما جرى منهم سنة (١٣٠١هـ / ١٣٠١م) حيث دخلوا بلادهم وعاثوا في الأرض فساداً يصحبه الطوامين في ذلك. وأراد العربان أن يكفروا عما سلف منهم في موقعة الخزندار (٦٩٩هـ) حين تخطفوا الكثير من الجند الممالك ونهبوا ما معهم^(١).

وربما كان من أهم أسباب انتصار الممالك على التتار في مرج الصفر الخطة التي ساروا عليها حين علموا من أسراهم الذين فروا من وجوههم أنهم عازمون على الفرار وقت السحر، فقد حملوا المياه إلى أسفل الجبل وأحدثت وحلاً كبيراً، ولما نزلوا فرقة بعد فرقة متعبين من شدة الجوع والعطش، فلم يتنبهوا لذلك الوحل، فعثرت الخيول وسقطت وسقط السلاح أيضاً، فسهل ذلك للممالك وضع السيوف فيهم، فكان هذا من أحسن التدبير، وهذا ما يفهم من قول ابن خلدون^(٢): «وقد اعترضتهم الأوحال بسبب الماء الذي وضعه لهم السلطان والممالك ووحلت خيولهم فيها، فاستوعبهم قتلاً وأسراً» كما يتضح أيضاً من قول ابن تغري بردي^(٣): «وقد كَلَّت خيولهم، وألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل والعساكر تقتل فيهم بغير مدافعة» إذ لا يمكن أن يلقي المقاتل سلاحه ويقدم نفسه للقتل مهما كان الأمر.

وقيل^(٤) أن المعركة لم تستغرق أكثر من يومين، إلا أن الواقع يقول أنها ثلاثة أيام، فكثير من المؤرخين^(٥) ذكروا تلك الأيام الثلاثة، ووضحوا ما يُمَيِّزها من أحداث، فالיום الأول يميزه تغلب التتار على ميمنة الممالك وقتل الأمراء والأجناد، وفي اليوم الثاني حمل الممالك على التتار بالسهم والرمح، واليوم الثالث نزل التتار من الجبل

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨ / ٩٩).

(٢) «العبر وديوان المبتدأ» (٥ / ٤١٨).

(٣) «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٣٠).

(٤) ابن إياس، «بدائع الزهور» (١ / ٤١٢) ابن دقماق، «الجواهر الثمين» (ص ١٣٥).

(٥) بيبس المنصوري، «زبدة الفكرة» (٩ / ٣٥٩) «التحفة المملوكية» (ص ١٦٧) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٢٧-١٢٩).

لما اشتد العطش بهم، فأفرج المماليك لهم من جهة اليسرة وتلقفهم بالسيوف، ويمكن الجمع بين الرأيين، بأنه استمرت المعركة يومي السبت والأحد حول جبل غباغب، ثم انتقلت في اليوم الثالث خارجه، لمطاردة التتار، فتكون المعركة انتهت بعد يومين حول جبل غباغب، ولكنها انتهت في اليوم الثالث خارج الميدان.

نتيجة المعركة:

وفي نهاية اليوم الثالث (الاثنين من رمضان سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) أعيدت السيوف إلى أغمادها بعدما ألحق المماليك الهزيمة بالتتار، وذكر بعض المؤرخين^(١) أنه استشهد من المماليك حوالي ألف فارس، وقتل من التتار نحو النصف - وكانوا مائة ألف^(٢) - وأسر ألف وستمائة^(٣) والحقيقة أنه لا يمكن أن يكون عدد من استشهد من المماليك ألفاً فقط، لأن اليوم الأول من الموقعة استشهد منهم ألف فارس من غير الأمراء^(٤)، وقيل أنه استشهد فيه من المماليك السلطانية نحواً من ألف وخمسمائة عدا من قتل من العربان والعشيرة والغلمان وغير ذلك^(٥)، وهؤلاء لا يقل عددهم عن ألف وخمسمائة أخرى على أقل تقدير، ولا بد أنه قتل في اليومين الأخيرين من المعركة ما لا يقل عن ألف فارس، فيكون مجموع من استشهد من المماليك أربعة آلاف تقريباً.

أما التتار فأعتقد أنه لم يصل عدد قتلاهم إلى هذا العدد الكبير - خمسين ألفاً، وقد يكون ذلك من مبالغات المؤرخين المسلمين.

(١) بيبرس المنصورى «التحفة الملوكية» (ص ١٦٧).

(٢) ابن إياس «بدائع الزهور» (١/١٤١٣).

(٣) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/١٣٣).

(٤) بيبرس المنصورى «زبدة الفكرة» (٩/٣٥٨).

(٥) ابن إياس «بدائع الزهور» (١/٤١٤).

أ- أثر النصر في مرج الصفر على أهل الشام:

وبعد انتهاء المعركة توجه الناصر محمد بالجيش وعدده -مائة وستة وتسعين ألفاً- إلى دمشق ويصف ابن تغري بردي^(١) حال المسلمين فيها ويقول: «استقبله عدد لا يحصيه إلا الله تعالى، فخرج له الأعيان وعامة الشعب من رجال ونساء وصبيان، وكان الجميع يضجّون بالثناء والشكر والدعاء لله عز وجل على أن بلغهم هذا النصر العظيم، ويذكر أن عبرات الفرح كانت تعلو الوجوه، وأن هذا اليوم الذي دخل فيه السلطان الناصر كان يوماً عظيماً في تاريخ دمشق لم يشاهد مثله، وعبر أهل دمشق عن فرحتهم بتزيين مدينتهم وخاصة قصرها الأبلق الذي نزل فيه السلطان الناصر». ثم توجه إلى قلعة دمشق يوم الخميس (السادس من رمضان ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) وصلى بها الجمعة، وخلع على نواب الشام وأمرهم بالرجوع إلى ولاياتهم^(٢).

هكذا استقبل أهل دمشق أخبار نصر المماليك على التتار، فتذكروا الله عز وجل ورأوا أنه هو صاحب الحمد والشكر؛ لأنه سبب نصرهم وعزتهم، وكان يوماً عظيماً لأهل دمشق؛ لأن نتيجة مرج الصفر أزالَت الخوف عنهم وطمأنتهم، وأشفت صدورهم من التتار بسبب هجومهم المتكرر على دمشق، وشملت الفرحه جميع الممالك الشاميه كحمص وحماة وأنطاكية .. وعاش عامة الناس في بلاد الشام خلال شهر رمضان في مسرات تتجدد، بسبب هذا الشهر الكريم وهذا النصر العظيم، وصام السلطان الناصر محمد بقية الشهر في دمشق^(٣)؛ لثلاث فواته أجر الصيام والعبادة بقية الشهر، فطريق العودة إلى مصر سيضطره إلى الإفطار في الأيام المتبقية فيه.

(١) «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٢٩).

(٢) النويري، «نهاية الأرب» (٣٠ ورقة ٩)، ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٨).

(٣) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٣٠) ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٨).

ب- أثر النصر على أهل مصر:

وخرج الناصر محمد من دمشق ثالث أيام عيد الفطر (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) يريد مصر^(١)، وكان قد وصلها بعض الفارين من القتال، فعمّ الخوف أهلها وظن الناس أن الهزيمة لحقت بالجيش مرة ثانية^(٢)، لكنهم سكنوا واطمأنوا بعد أن وصل الأمير بكتوت الفتاح^(٣) ببشارة النصر، فبدأ الناس يعدّون الزينات ابتهاجاً بالنصر وقدم السلطان متصراً، فنصبوا القلاع^(٤)، وأخرجوا الحلي والجواهر واللالئ وأنواع الحرير، ومدّت الأسمطة الفاخرة، والأحواض المملئة بالسكر والليمون، ووصل الناصر محمد والجيش يوم الثلاثاء (الثالث والعشرين من شوال ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) فخرج الناس من جميع الجهات لاستقبالهم، حتى بلغ كراء البيت الذي يمر موكب السلطان عليه من خمسين درهم إلى مائة، ولما وصل الناصر محمد باب النصر في الجمالية ترجّل له الأمراء، وفرش كل منهم الشقق -الحرير والسجاد- من قلعته إلى قلعة الذي يليه، وفرشت الأرض من باب النصر حتى القلعة^(٥)، فكانت القاهرة كما وصفها يبيرس المنصوري^(٦): «فوصلها وقد زفت عروساً في أبهى الحلل، وزينت زينة

(١) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٣٠-١٣١).

(٢) إبراهيم مغلطي، «تاريخ سلاطين المماليك» مطبعة بريل، (١٩١٩م، ص ١١٤).

(٣) بكتوت الفتاح، هو الأمير بدر الدين، كان من مماليك المنصور قلاوون، وترقى حتى تأمر (٦٩٨هـ / ١٢٩٨م) وكان أميراً جاندار بعد بكتمر، واختص بالمظفر بيبرس لما تسلطن، وخرج معه إلى الصعيد ثم رجع إلى مصر طائعاً فأكرمه الناصر محمد، ثم تغير عليه وأمر بإمساكه، وسجن بالاسكندرية حتى مات جوعاً (٧١٠هـ / ١٣١٠م) -يقال ظل أحد عشر يوماً دون أكل- ابن حجر، «الدرر الكامنة» (٢/ ٢٣).

(٤) القلاع: أقواس النصر أو الزينة التي تقام بعرض الطريق على ألواح من الخشب، يمرّ من تحتها موكب السلطان، سعيد عاشور، «العصر المماليكي في مصر والشام» دار النهضة، (١٩٦٥م) (ص ٤٦٢)، وعدتها سبعين قلعة ابن تغري بردي «النجوم» (٨/ ١٣٣).

(٥) المقرئزي، «السلوك» (١/ ٩٣٩) ابن إياس «بدائع الزهور» (١/ ٤١٤).

(٦) «التحفة الملوكية» (ص ١٦٩).

فاقت في التفصيل والجمل..» ويعلق ابن تغري بردي على المبالغة في تلك الزينة قائلاً^(١): «لو فعل هذا في زماننا والي القاهرة، لكان حصل عليه الإنكار بسبب إضاعة المال، وقيل له: لم لا حملت إلينا ما صرفته؟ فإنه كان أنفع خيراً من هذا الإسراف، وإنما كانت نفوس أولئك غنية وهمهم عليّة، وما كان قصدهم إلا إظهار النعمة والتفاخر في الحشم والأسمطة والإنعامات، حتى يشاع عنهم ويذكر إلى الأبد».

وابن تغري بردي محق في هذا الكلام، فهذه الزينة وما صرف عليها من المال كان أولى أن يصرف في تعمير ما ضرب في دمشق والصالحية بعد موقعة الخزندار ومرج الصفر، أو في إعداد السلاح والخيل بدلاً من الذي فقد في المعركة، أو على الأقل في تعمير المساجد والمدارس والتوسعة على الناس، ولكن للأسف ما زالت هذه التقاليد السيئة موجودة حتى اليوم في دول العالم الثالث.

وكان مع الناصر محمد عند دخوله القاهرة بالجيش من أسرى التتار حوالي ألف وستمئة أسير، وفي أعناقهم ألف وستمئة رأس من رؤوس قتلى التتار، وألف رأس أخرى محمولة على ألف رمح^(٢)، وعن سوق الأسرى أمامهم فهذا أمر مقبول، أما وضع الرؤوس في أعناق الأسرى وحمل الأخرى على الرماح فهذا غير مقبول؛ لأن هذا عمل لا يقره الإسلام الحنيف الذي نهى عن المثلة، والممالك سنيون ولا يخفى عليهم ذلك، وإذا قلنا -على سبيل الفرض- أن الممالك عملوا ذلك رفعاً للروح المعنوية وشفاء لقلوب الذين استشهد رجالهم وأولادهم في المعارك السابقة مع التتار كما ذكر البعض^(٣)، فهل شفاء القلوب لا يأتي إلا بهذه الطريقة، ثم أنهم قتلوا منهم في مرج الصفر عدداً كبيراً جداً ربما وصل خمس وعشرون ألفاً -في الغالب- بين قتيل وغريق في نهر الفرات، وهذا في واقع الأمر كافٍ لشفاء القلوب، وفي ظني لا يمكن أن

(١) «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٣٢).

(٢) المقرئ، «السلوك» (١/ ٩٣٩) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٣٣).

(٣) فايد حماد عاشور، «العلاقات السياسية بين الممالك والمغول» (مصر، دار المعارف، ١٩٧٦م) (ص ٣٧٧).

يتحمل جيش السلطان الناصر محمد والخليفة والأمراء ما تخرجه هذه الرؤوس من روائح متنتة خاصة وأنها بقيت معهم من نهاية يوم الاثنين الثالث من رمضان حتى وصولهم مصر يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال^(١)، -أي في حدود خمسين يوماً- وهذا الوقت كافٍ أن تتحول هذه الرؤوس إلى جيف لا يمكن الاضطبار عليها، وأظنه الأقرب إلى الصحة أن الجيش لما وصل مع الأسرى طاف بهم القاهرة تشفياً ثم أودعوا داخل السجون ليرزحوا تحت التعذيب.

وكان الناصر محمد قد أرسل رسالة^(٢) إلى غازان بعد المعركة مباشرة -وقيل بعد وصوله مصر- وفي هذه الرسالة يبين الناصر محمد لغازان:

إن الهزيمة لحقت بجيشه مقدماً باللقاء في عَرْض، فكانت بشرى النصر في مرج الصَفَر، وما هي إلا ساعة من نهار حتى انهزم جيشه وبقيت الجثث ملقاة على الأرض، ثم يصف له هزيمة جيشه المنكرة في مرج الصَفَر، بأنه لم يأت آخر نهار يوم السبت إلا وقد حَلَّت بهم الهزيمة، فلجأوا إلى الجبل ليعصمهم وأيقنوا بالهلاك، ثم يقول له: أحمد الله أنك لم تحضر المعركة وتشاهد ما حلَّ بجيشك من الهزيمة والإنكار، فمرور أخبار الهزيمة على سمعك أهون من مشاهدتك لها شهود العيان، ثم يطلب الناصر من غازان أن يخلي بغداد ويسلمها للخليفة المستكفي بالله، وأخيراً في نهاية الرسالة يقول له: «فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريع (كذا) -وإما الخروج عن الروم والعراق جميع- (كذا). وعن قريب نأتيك بجيوشنا تميل بجاني الأرض ترجف، وترى ما يهولك ولو على قعود تزحف وقد أعذر من أنذر».

وهكذا استخدم الناصر محمد نفس الأسلوب الذي اتبعه غازان عقب موقعة الحزنذار (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) من الاغترار بقوة جيشه، ووصف الهزيمة المنكرة لعدوه،

(١) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/١٣٢).

(٢) انظر نص الرسالة في ابن أبيك، «كنز الدرر» (٩/١١٩-١٢٢) إبراهيم مغلطي، «تاريخ سلاطين المماليك» (ص ١١٨-١٢١) العيني، (عقد الجمان) (١٩ ورقة ٢٩٠-٢٩٢).

والتهديد بالرجوع مرة ثانية للحرب، وهذه سمة الغالب دائماً^(١).

وزيادة في استعراض القوة يطالب الناصر محمد غازان بالخروج عن بغداد وتسليمها للخليفة المستكفي بالله الموجود بالقاهرة، ورجوع بغداد للخليفة العباسي يعني رجوعها لحوزة الممالك؛ لأن الخليفة في هذا الوقت كان العوبة في أيدي سلاطين الممالك، بل أن السلطان الناصر أراد أن ينتقل أيضاً إلى بغداد؛ ليتخلص من تحكم الأمراء فيه، خاصة سلالر وبيبرس الجاشنكير الذين ضيقا الخناق عليه، ومنعاه من الاتصال بالناس والتصرف في أمواله^(٢).

ج- أثر النصر على الأدباء:

أحدث نصر الممالك على التتار في مرج الصفر دويماً في جميع الأمصار الإسلامية وخاصة الشام ومصر، وكان للشعراء دور في إنشاء القصائد التي تعبر عن فرحتهم ووصفهم للمعركة، ومن هذا ما قاله شرف الدين بن الوحيد:

وجاءت ملوك المغل كالرمل كثرة وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الأيام في الحكم بيننا فكانت لهم الأولى وكانت لنا الأخرى
وأقبل سلطان الزمان مؤيداً يقود الجياد الجرد والعسكر المجرى
وكان نهار السبت بالنصر شاهداً بصدق وكان الوقت قد رحم العصر^(٣)

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١١١).

(٢) سعيد عاشور، «مصر والشام في عصر الأيوبيين والممالك» (ص ٢٢٦)، عادل زيتون، «تاريخ الممالك» (ص ٥٦).

(٣)

فلله در الترك كم سفكت دماً وكم قطعت رأساً وكم نغرت نحراً
فولت ولاذت بالرجال تحصناً ولولا تخاف القتل لاختارت الأسرى

إبراهيم مغلطاي «تاريخ سلاطين الممالك» (ص ١٢٣).

وعما قاله علاء الدين علي بن عبدالظاهر مخاطباً الناصر محمد:

أطلع الشرق من جبينك شمساً ليس تخفى ومن عيالك بدرأ
كان أمر التتار مستصعب الحال فصيرت عسر ذلك يسراً^(١)

وقال الأمير بيبرس الفارقاني قصيدة في الملك الناصر لما انتصر:

إذا ما شئت أن تحيا هنيئاً فبادر للصناجق والبنود
تري من تحتها ملكاً هماماً وفيأ بالموائق والعهود
هو الضرغام خواض المنايا إذا ما الحرب تسعر بالوقود
أتى مثل الغمام بجيش مصر وكوسات كأصوات الرعد
لها وقع ترن الأرض منه وترعد منه آفاق الوجود
وأسياف لها لمع كبرق تقدّ بها العظام مع الجلود..^(٢)

وقال شمس الدين الطيبي^(٣) يمدح المعركة وما حدث فيها:

يا مرج صُفّر بيّضت الوجوه كما فعلت من قبل والإسلام يؤتلف
أزهر روضك أزهى عند نفحته أم يانعات رؤوس فيك تقتطف..
دارت عليهم من الشجعان دائرة فما لجأ سالم منهم وقد زحفوا
ونكسوا منهم الأعلام فانهزموا ونكصوهم على الأعلام فانقصفوا..^(٤)

(١) ابن حبيب «تذكرة النبيه» (٢٤٧/١)

(٢) ابن إياس «بدائع الزهور» (٤١٥/١/١)

(٣) أحمد بن يوسف بن يعقوب الطيبي، كاتب الأنشطة بطرابلس، كان أديباً فاضلاً، نظم في موقعة مرج الصُفّر هذه القصيدة من تسعين بيتاً، مات بطرابلس في شهر رمضان سنة (٧١٧هـ/١٣١٧م) ابن حجر «الدرر الكامنة» (٣٦٣/١) ابن تغري بردي، «الدليل الشافي» (١٠٠/١).

(٤) محمد كرد علي، «خطط الشام» (١٣٩/٢).

ومن قصيدة طويلة للقاضي جمال الدين عبدالقاهر بن محمد التبريزي^(١) يذكر فيها هذه المعركة، ويمدح السلطان الناصر محمد منها:

وددت لو كنت بين الصفّ منجداً قد ارتوت من دمي الخطية السمر
وكوثر الحرب قد راقّت مشاربه تحت العجاجة والأبطال تعتكر
والسيف ينثني بديعاً من فواقره والرمح ينظم والهجمات تنتثر..
ملكاً أعيد به عصر الشباب لكم مسترغداً صافياً واستؤنف العمر
ترى الملوك صفوفاً حوله زمراً من فرط هيئته لا يرجع البصر
فدام للدين والدنيا يسوسهما فكرّ له فيه سرّ الله مستر^(٢)

لقد استحوذ هذا النصر الحاسم للمماليك على التتار في موقعة مرج الصفر على عقول الشعراء، وجعلهم يشاركون بأقلامهم فرحة الشعب والعساكر في هذا النصر، فذكروا ما حدث في هذه الموقعة من صدام بين المماليك والتتار، ووصفوها وصفاً دقيقاً، وبالعكس البعض حين ذكر أن التتار كالرمل^(٣) من كثرتهم؛ بهدف أن يقال أن الفئة القليلة غلبت الكثيرة، وأطرى البعض في مدح الناصر محمد، وجعله سبباً في غلبة المماليك على التتار، وكتب أحدهم كتاباً^(٤) صنّفه في خبر هذه الواقعة وبعثه إلى السلطان الناصر، ومما قال فيه: «..الحمد لله الذي آيد الدين بناصره، وجعل من الذرية المنصورية من يجاهد في الله حق جهاده .. وركب مولانا السلطان الملك الناصر بنية صالحة اخلصها في سبيل ربه من قلعة مصر بجيوشه تقدمها أمراؤه .. ثم جاءهم من

(١) عبدالقاهر بن محمد بن عبدالواحد بن محمد بن إبراهيم، نزيرل دمشق، الأديب الشاعر توفي سنة ١٣٣٩هـ/٧٤٠م بدمياط ابن تغري بردي «المنهل الصافي» (٤٢٣/١) ابن حجر «الدرر الكامنة» (٧/٣).

(٢) ابن حبيب «تذكرة النبيه» (٢٤٨/١).

(٣) محمد كرد علي «خطط الشام» (١٣٩/٢).

(٤) سمي نص الكتاب باسم «الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر» للقاضي علاء الدين علي بن عبدالظاهر أورده النويري، «نهاية الأرب» (٣٠/٣٣٧)، «السلوك» (١/٣/١٠٢٧) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/٢٤٢-٢٥٢)، ملحق رقم (٦).

يلفهم أن جمعاً من التتار أغاروا على القريتين .. ثم وصل السلطان عزة والإسلام - بحمد الله - قد زاد قوة وعزة .. ووصلوا يوم السبت الثاني من شهر رمضان (٥٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) إلى مرج الصفر والتقى الفريقان بعزائم قوية .. وأتى العدو جملة واحدة وحمل حملة أمست بالنفوس جايدة .. فهاله جمع الإسلام .. ثم لجأ التتار إلى الهضاب اعتقدوا أن فيها النجاة .. وحصرتهم العساكر الإسلامية بعزائم كالشهاب أو النار ودارت عليهم كالسوار .. وأصبح الإسلام يوم الأحد من قوته المنيرة وأرواح العدى في أجسادهم وديعة .. فضيقت العساكر الإسلامية عليهم الخناق، وراسلوهم بالسهم، ورفعوا من راياتهم المنصورة ما طاول المنشآت في البحر كالأعلام، فتساوى السهل من قتلاهم بالجبل .. وضائق عليهم المسالك وغلبوا هناك .. ثم رحل السلطان الناصر عن دمشق يوم الثلاثاء، الثالث من شوال (٥٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) ..

يلاحظ أنه غلب على هذا الكتاب السجع والإطراء في مدح السلطان الناصر، والمبالغة في وصف أيام الموقعة وتمجيد العساكر الإسلامية وإظهار التتار في صورة سيئة جداً، وكان لذلك أثره على كاتبه، فقد حظي عند الناصر محمد بمكانة كبيرة، وأغدق عليه من الخيرات والشرف السلطاني ما لا يعلم به إلا الله تعالى، وهذا ما أشار إليه ابن تغري بردي^(١) في آخر الكتاب.

د- أثر الهزيمة على التتار:

حين وصلت أخبار هزيمة التتار إلى غازان - وكان مقيماً في همذان^(٢) - اعتقد أنها كهزيمة عساكره في غرض حيث قتل منهم أربعة آلاف، فكان وقعها على نفسه قليل، لكن

(١) «النجوم الزاهرة» (٢٥٢/٨).

(٢) مدينة مشهورة من مدن الجبال وأكبرها، لها رقعة واسعة وهواء لطيف وماء عذب وتربة طيبة، القزويني، زكريا بن محمد «آثار البلاد وأخبار العباد» بيروت، الطبعة الثانية (ص ٤٨٣)، ابن عبدالحق، «مراصد الاطلاع» (٣/١٤٦٤).

حين خرج أهل تبريز^(١) وغيرهم إلى لقاء العساكر التتارية المهزومة، وعرفوا الأعداد الكثيرة التي فقدت في المعركة وقع الصراخ والعيول في تبريز وما حولها مدة شهرين على القتل، وكان لهذا أثره على غازان، الذي اغتم غماً شديداً، وخرج من منخرينه دم غزير حتى أشفى على الموت، واحتجب عن الناس، ويظهر أن الصدمة كانت قوية على نفسه، خاصة حين رأى أنه لم يصل من عساكره من كل عشرة واحد ممن كان انتخبهم من خيار جيشه كما يشير البعض^(٢) إلى ذلك، وهذا يعني أن من عاد إلى غازان من العساكر لا يتجاوز عشرة آلاف، أما العدد المتبقي -تسعين ألفاً- فقد ذهب منهم في المعركة خمسة وعشرين ألفاً، وأسر منهم ألفاً وستمائة، وغرق منهم في نهر الفرات خمسة آلاف، وهرب الباقي -خمس وخمسون ألفاً- داخل الشام؛ خوفاً على أنفسهم من القتل على أيدي المماليك، وهرباً من عقوبة غازان بعد عودتهم إليه مهزومين، والدليل على ذلك أنه نفذ العقوبة في أمراءه المهزومين، وفي مقدمتهم مولاي، حيث ضربه عدة عصي وأهانته بشدة^(٣).

وعلى العموم زاد الهمّ والألم والغمّ على غازان، فأصابته حمى توفي على أثرها في الثالث والعشرين من شوال (٧٠٣هـ / ١٣٠٣م)^(٤)، وقيل في سبب موت غازان أيضاً أنه بعد عودة جيشه منهزماً اشتد في معاملة قواده، حيث حمّلهم مسؤولية تلك الهزيمة، وأخذ يعنفهم ويتوعددهم فاتفقوا مع زوجته -هيماخاتون- على دس السم له، فوضعت له في منديل كان يستخدمه وقت الجماع، فتوفي بسبب هذا السم القاتل^(٥).

(١) أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة، وفي وسطها عدة أنهار جارية .. ياقوت، «معجم البلدان» (١٣/٢) الحميري، «الروض المعطار» (ص ١٣٠).

(٢) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٣٠، ١٣١).

(٣) المرجع نفسه (٨/ ١٣١).

(٤) بيارس النصوري، «التحفة الملوكية» (ص ١٧٤)، أبو الفدا، «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٥٠)، الصديقي رزق الله منقريوس، «تاريخ دول الإسلام» مطبعة الهلال، مصر، ١٩٠٧م (٢/ ٢٨٨)، المقرئزي، «السلوك» (١/ ٩٧٧)، ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ» (٥/ ٤١٨)، ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٣٤).

(٥) ابن أيبك، «كنز الدرر» (٩/ ١١٢)، ابن كثير «البداية والنهاية» (١٤/ ٣١)، الديار بكري حسين بن محمد

وأرى أن السبب الثاني - وهو السم - هو الأرجح في موت غازان، فقليلاً ما يموت القواد إثر هزائم جيوشهم، ولأن غازان كان قد اشتط في تعنيف وتهديد قواده ومن ذلك ما عمله مع قطلوشاه -مقدم عساكره- وجوبان وسوتاي، ومن كان معهم من الأمراء، حيث عرّضهم جميعاً للإهانة، وكان أعظمهم قطلوشاه، فيذكر أنه أمر أولاً بقتله ثم رجاء الأمراء أن يعفو عنه ففعل، ولكنه عتفه بشدة، حيث وضعه أمامه على مسافة بعيدة بحيث يراه وأمر الناس -الذين كانوا بحضرته- أن يهينوه بشتى الطرق والوسائل كل واحد على حدة^(١)، ولا شك أن هذا العمل يثير الأمراء أيما إثارة ويجعلهم يتفقون فيما بينهم على الفتك بمن يسيء إليهم ويظهر الغدر بهم، وكانت المؤامرات بين الأمراء لاغتيال القواد ظاهرة من ظواهر هذا العصر، وقد حدث هذا في مصر للأشرف خليل بن قلاوون^(٢)، وللسلطان حسام الدين لاجين^(٣)، وعلى هذا كان دس السم لغازان في المنديل عن طريق زوجته هو السبب في تلك الحمى المهلكة، وخروج الدم من منخربيه الذي توفي على أثره.

هكذا مرت موقعة مرج الصفر بعد أن عاش المماليك فيها أياماً عصيبة، بدأت بالتردد عن مقابلة التتار؛ لما يعرفونه عنهم من قسوة وبطش، وكان لوصول العساكر المصرية دور في تقوية عزائمهم، فدخلوها بقلوب ثابتة وعزائم صادقة على الدفاع عن الدين الإسلامي، وفوجئوا بقتل ألفين -تقريباً- في اليوم الأول من المعركة، إلا أن تضافر جهود الميسرة والقلب دفع بهم إلى الصمود أمام التتار، فأحاطوا بهم داخل

«تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس» المطبعة الوهاية (١٢٨٣هـ)، (٢/٣٨١).

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/١٣١).

(٢) ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى، تولى الملك ذي القعدة سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٠م) وفتح عكا وطرده الفرنج من الشام، كما حاصر قلعة الروم خمسة وعشرين يوماً ثم فتحها سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م) وقتل سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٤م) ابن شاكرك «فوات الوفيات» (١/٤٠٦، ٤٠٧) ابن العماد «شذرات الذهب» (٣/٤٢٢).

(٣) سبق التعريف به.

جبل غباغب إحاطة السوار بالمعصم، وهزم الله تعالى التتار حين نزلوا من أعلى الجبل -بعد أن أهلكهم العطش- فأخذهم المماليك من خلفهم قتلاً وأسرأ، وتفرق من بقي منهم بين غريق في نهر الفرات وشريد وطريد في أرض الشام.

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالمعجزات، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أولي الفضل والمكرمات، وبعد:

فإنه بعد إلقاء الضوء على موقعة مرج الصفر نخلص إلى النتائج التالية:

أولاً: كانت علاقة الشام ومصر بمغول فارس علاقة عدائية في عهد غازان، إذ وقعت فيها عدة معارك أهمها مرج الصفر التي دارت بينهم، وانتهت بهزيمة التتار.

ثانياً: يتضح أن غازان كان جاداً في قتال المماليك، بهدف الاستيلاء على الشام ثم مصر.

ثالثاً: استخدم غازان المكر والخديعة مع المماليك، فأوهمهم أن بلاده أجديت، وأنهم يريدون الإقامة بجلب، ليرتادوا المراعي بنواحي الفرات^(١)، ونادى بالصلح وهو يريد غير ذلك، لينال مأربه وهو ضمّ بلاد الشام ومصر إلى أملاك التتار.

رابعاً: يعتبر نصر المماليك الحاسم في موقعة عرّض مقدمة للنصر في مرج الصفر^(٢)، فقد رفع هذا النصر معنوياتهم، وشد أزهرهم، وجراهم على لقاء التتار في مرج الصفر.

خامساً: كانت العساكر الإسلامية قوية في إيمانها بربها عز وجل، وكانوا يلجأون

(١) ابن اياس «بدائع الزهور» (١/١٢٤) ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ» (٥/٤١٧).

(٢) أبو الفداء «المختصر» (٤/٤٨).

إليه في جميع أحوالهم، فلكثروا الطاعات وألحوا بالدعوات قبل لقاء التتار، وضجّوا بالثناء والشكر لله تعالى بعد غلبهم للتتار، والله لا يضيع من يلجأ إليه.

سادساً: التنافس في طلب الشهادة في سبيل الله، فقد لبّت العساكر المصرية نداء إخوانهم من أهل الشام حين استنجدوا بهم، ونادى المنادي بالنفير العام، وحضر الجند من كل مكان يتقدمهم السلطان الناصر محمد والخليفة العباسي المستكفي بالله سليمان.

سابعاً: جدية المسلمين في قتالهم للتتار، فقد هبّ القلب والميسرة لمساندة الميمنة حين تعرضت للهزيمة، وكان لذلك أثره الواضح على سير المعركة بقية اليوم الأول والذي يليه، وتقهر التتار إلى جبل غباغب هرباً من سيوف المماليك.

ثامناً: وجود الخلل في صفوف التتار وتفرق القلوب، وكان هروب مولاي مع فرقته -عشرين ألفاً- يدل على ذلك، وهذا يفيد أن التتار جاءوا لقتال أهل الشام بغير رغبة، ويبدو أن قتلوشاه حسن لهم أمر الغزو، ووعدهم بالنصر المؤكد وبعده يدخلون دمشق للسيطرة على خيراتها، وحين رأوا عكس ذلك هربوا من المعسكر وفي مقدمتهم مولاي وجنده.

تاسعاً: كان غازان شديد القسوة على جنده التتاريين^(١)، مما دفع بعض الجند الذين نجوا من سيوف المماليك إلى التفرق داخل الشام خوفاً من عقوبته وجبروته.

عاشراً: إسراف أهل مصر في التعبير عن فرحتهم بغلبة المماليك في مرج الصفر، فنصبوا قلاعاً كما يذكر ابن تغري بردي^(٢) عددها سبعون قلعة، وتفاخروا في تزيينها، ونودي في القاهرة «من استعمل صانعاً في غير صنعة القلاع كانت عليه جناية السلطان الناصر محمد».

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٣١).

(٢) «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٣٣).

حادي عشر: كان لمرج الصُّفَر أثرها في إلقاء الرعب في قلوب التتار، مما جعلهم يذعنون للصلح، وهذا ما أشار إليه خربندا^(١) أخو غازان وخليفته على التتار بعد هلاكه، فقد كتب إلى السلطان الناصر محمد بتولية الملك على التتار وطلب الصلح وإخماد الفتنة بينهم^(٢)

ثاني عشر: أظهرت هذه المعركة الدور البارز للعلماء في ميادين القتال، فقد كان لابن تيمية دوراً هاماً ومؤثراً في تحريض الجند على التصدي للتتار، بل وبشرهم بالنصر قبل بدء المعركة.

ثالث عشر: كما أكدت التلاحم الشديد بين مصر والشام في مواجهة التتار، كما حدث من قبل في عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م).

وفي ختام هذا الجهد المتواضع أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) محمد بن أرغون بن أبغا بن هلاكو بن تولي .. المعروف بخربنده وعلى السنة العامة خربندا ولد سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤م) تولى أمر السلطنة ببلاد التتار سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) بعد موت أخيه غازان، وكان جواداً سمحاً، يحب العمارة، أنشأ مدينة جديدة بأذربيجان سماها السلطانية، مات في شهر رمضان سنة (٧١٦هـ/١٣١٦م) ابن حبيب «تذكرة النبي» (١/٢٥٧) ابن حجر «الدرر الكامنة» (٣/٤٦٨).

(٢) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (٨/١٣٤).

